نون الغربة

(رواية)

د. أروى يحيى الارياني

نون الغربة

تصميم الغلاف: مود ستوديو
المراجعة اللغوية: سوسن محمد البحر

(1)

شارفتْ 2023 على الانتهاء، كانت و-الحمد لله- مليئة بالعمل والجهد والنجاح رغم ما صاحبها من الألم والحزن، كنتُ جالسة على الأريكة مشغولة في تأملاتي، انقطعت أفكاري بصوت جرس الباب الذي دق. أسرع باسل لفتح الباب، ووراءه كانتْ نورما، الصحافية الشابة ذاتْ الأصول المغربية، واصلتْ كلامها الذي بدأته قبل قليل على الهاتف وألحتْ عليّ لكتابة قصة نجاحي والأسباب التي قادتني لهذا المشروع.

- لا أعتقد أني أستطيع عمل هذا. كررتُ عليها ما قلتُه على الهاتف.

ضحكتْ نورما، وقالتْ محاولةً التحدث باللغة العربية وبلهجة مغربية مختلطة بكثير من الكلمات الإنجليزية:

- فقط اسردي قصة نجاحكِ بأي طريقة تريدين، كتابةً بحاسوبكِ المحمول، أو بالورقة والقلم، بأي طريقة حتى ولو بالعربية، نحن سنترجمها وسنصدرها في كتيبنا تحت عنوان "الديّنا ناجحات"، سوف نوزعه في الحفل، أرجوكِ إني معتمدة عليكِ لنجاح الكتيب الذي سيضم قصص عشر نساء ناجحات من منطقتنا.
- ليس لديّ وقت صدقيني؛ واعذريني عزيزتي نورما.
- حاولي، وإذا وجدتِ صعوبة أبلغيني أرسل لكِ مجموعة أسئلة للرد عليها على الأقل.

قال باسل الذي كان يجلس أمامي يستذكر دروسه ويستمع إلينا:

- سجليه يا صافي، وهي فيما بعد تكتبه.

أجابته نورما المغربية وهي تعيد ضم شعرها الأسود:

- فكرة رائعة! نعم يُمكنكِ أن تسجلي سيكون أسهل عليكِ وأنا سأترجمه، أنا أعرف العربية كما تعلمين.

ضحكتُ وأنا أتابع كلماتها بالعربية وهي تتعثر وتتداخل مع الإنجليزية، وقلتُ لها:

- سوف أحاول، لا أعدكِ، ولكني سوف أحاول.

وانطلقتْ وهي تردد رجائها أن أهتم بالموضوع، وأن حياتي نموذجٌ يجب أن يُكتب، وخرجتْ مسرعةً كعادة هذا العمر وعادة أهل هذه البلد. ابتسمتُ لنفسي "قصة نجاحكِ" من قال إنها قصة نجاحي، لم تكن ضمن أحلامي ولم أسع لها، فكيف لأحلامي أن تتحول من صانعة مواقع لصانعة كعك، أنها كانت وسيلة فقط، وسيلة نجحتْ وشكلتْ حياتي هنا في أمريكا. ونظرتُ إلى باسل وهو يلملم أوراقه ودفاتره، وتمنى لي ليلة سعيدة، وانصرف إلى حجرته.

سمعتُ ترتيل القرآن من الحجرة الأخرى ينساب بهدوء وجلال، شعرتُ بالامتنان والأمان، وأغمضتُ عينيّ أحاول أن استرجع البدايات، ليس سهلاً أن نكتب قصة حياة، هناك كثير من التفاصيل التي صنعتْ فارق واختفت، ولكن كيف كانتْ البداية؟! انهمرتْ الذكريات ومثلها دموعي لا أدري هل كنتُ أكتب؟ أم أسجل؟ أم أني فقط أعيش الماضي مرة أخرى بكل تفاصيله وكل مفاجأته وعثراته، وكل تلك الخيبات التي عشتُها وتجرعتُها وشكلتْ الكثير من سنوات عمري، تريد فقرات ممّا مر بحياتي؟!! وهل أستطيع أن أسرد ما مرّ بي! وطن وأحلام، هجرة وركود، ألم وتحديات، هكذا كانتْ حياتي؛ سرتُ في كل مرحلة وأنا أحلم أني سأعود لوطن زرعتُ فيه حلماً، ولكن الحياة جرفتني، وابتعدتُ بعيداً عن حضن الوطن وعن الأحلام، عشتُ غربة وغصة، اغمضتُ عينيّ وسمحتُ للماضي التسلل إلى ذاكرتي من مكانٍ ما في أعماقي، عاد حياً بكل ذلك الأمل الذي كان، وكل ذلك القهر الذي صار، وعدتُ أتذكر، ووجدتُ نفسي أغوص في تلك السنوات البعيدة.

****

كنتُ فتاة سعيدة جداً، محظوظة جداً، أعيش فوق السحاب بعيداً جداً عن الأرض وعمّا يجرى فيها، كنتُ أعيش أحلامي وأُجَمِلُها بكل ما يساعدني به خيالي وشغفي، كنتُ أعيش فوق السحاب، ولِمَ لا؟ أنهيتُ سنوات الجامعة بتفوق وبمعدل عالٍ، وحظيتُ بعمل في الشركة التي كنتُ قد تطوعتُ للعمل بها خلال فترة الصيف، برعتُ في برمجة وتطوير المواقع على الانترنت، صممتُ الكثير من المواقع ونالتْ استحسان الجميع في الشركة، وقيل إني نابغة وأملك كثير من الأفكار الإبداعية والحس الفني العالي، كنتُ أعيش في العالي فوق السحاب وأنا أسعى لكتابة أسطورة "صفية صانعة المواقع"، كان حلمي الذي سخرتُ له جُلَّ اهتمامي وكل وقتي، أترقب نموه وتطوره يوماً بعد يوم، من هذا الذي سحبني إلى الأرض؟ إلى أعماق الأرض، فلم أعُد أرى شيئاً ولم أعُد أجد نفسي.

صفية هذا اسمي، إذا ما كان عليّ تعريف نفسي، ولدتُ وترعرعتُ في اليمن، من أسرة تقليدية مكونة من ولدين أكبر مني سناً وأنا الفتاة الوحيدة. درستُ الجامعة وتخصصتُ في تكنولوجيا المعلومات، وأحببتُ تصميم المواقع على النت، وبرعتُ فيها كثيراً، تخرجتُ بمعدل عالٍ وحصلتُ على عمل بمجرد تخرجي. إخوتي أيضا يعملان منذ تخرجهما وتزوج كلّ منهما، أكبرهما يسكن معنا في نفس المنزل. يعمل أبي في شركة استيراد وتصدير منذ سنوات، لديّنا بيت نسكن فيه عبارة عن منزل من طابقين في حيّ جميل من مدينة حدة، كما أن لنا شقة ورثها أبي عن أبيه وهي بعمارة من ثلاثة طوابق، يملك أعمامي الطابقين الآخرين، والعمارة بأكملها مؤجرة لشركة أجنبية؛ لذا كنا نعيش حياة هادئة ميسورة.

كيف بدأتْ رحلتي؟ وكيف غيّر القدر مسار حياتي؟ ربما بدأ التغيير يطال حياتي في 2014، ربما! لا أذكر، ولكني أذكر أن أمي قالت لي ذات يوم وبعد عودتي من عملي مباشرة وقبل حتى أن أرفع نقابي، أنّي خُطبتُ! هكذا قالتْ ببساطة وفرحة وهي سعيدة جداً، كما لو كان الزواج رحلة لمدة يومين ليس إلا.

رجلٌ يعيش في أمريكا تقدّم لي، يريدني شريكة حياته ورفيقته هناك، "فيا لحظك صفية" قالتها أمي وهي تطلق زغرودة عالية وصلتْ لمسامع الجيران. دُهشت لم أستوعب ماذا يعني ذلك؟ واصلتْ أمي تعداد مناقب العريس، وهي تلحق بي وأنا أحاول أن أصل لحجرتي بأمان، عرفتُ من سردها المتواصل أنّه رجل اقترب من الأربعين، يعيش منذ أن كان طفلا في أمريكا برفقة عمّه، وعرفتُ أن أباه كان صديقاً عزيزاً جداً على أبي ومن رفقاء شبابه، وقد توفي منذ سنوات كثيرة؛ فأخذ العمّ ابن شقيقه وتكفل فيه، وخاصة أن أمه متوفية أيضا، ولم يكن لديّه إخوة.

جلسنا على مائدة الطعام الكل مبتسم، وكأن الخبر جاء بعد طول انتظار، كأني كنتُ في أزمة وانفرجتْ، أو ربما كان هذا الرجل مقدماً جميلا لأسرتي، لم أستوعب! هل كانت قضية الزواج

هكذا مهمة؟ سمعتُ أبي يقول على طاولة الطعام " لقد كان والده رفيق طفولتي وبداية شبابي، كان صديقاً عزيزاً، توفي صغيراً تاركاً هذا الولد وحيداً، إني سعيد أن أعطي ابنتي لابن صديق العمر؛ تخليداً لصداقتنا وسأكون أديتُ واجبي تجاه صديقي".

فزعتُ! لم أصدق أن هذا يحدث لي، وكأن الموضوع قد أصبح أمراً مفروغاً منه، زواج وهجرة مرة واحدة، لم أستوعب، هل القبول بهذا الرجل يعني أن أهاجر؟ أترك وطني، وأهلي، وعملي، وصديقاتي؟ لم أتخيل نفسي مهاجرة يوماً ما، لم تكن الكلمة حتى معروفة في أسرتنا، لا أعرف لها معنى، لِمَ يترك البشر بلادهم ويرحلون إلى بلاد الآخرين؟ كيف يقتلعون جذورهم وينزرعون في أرض لا جذور لهم فيها؟ لا أدري هل ما أسمع هو حقيقة؟! أم أني أعيش كابوس سوف أستيقظ منه؟

جاءت الأيام التالية لهذا اليوم المشؤوم، أيام غريبة لا تشبه أيامي، لم أذهب للعمل، قبعتُ في غرفتي معلنة رفضي واحتجاجي على التحكم الصارخ في حياتي، لم يسمع لي أحد، ترجيتُ أبي، ذكرتُه بسهر الليالي للدراسة وتخرجي بتفوق وحصولي على عمل مباشرة، ذكرتُه بحلمي الذي كنتُ أبنيه وأطوره يوماً بعد يوم، ولكن رده كان حازماً "هذا ابن صديقي - رحمه الله- وهذا أبسط رد جميل للعشرة الطويلة بيننا، وفي الأخير البنات ليس لهن إلا الزواج".

هكذا ليس لهنّ إلا الزواج؟!! لا شيء آخر يمكن أن نعيش من أجله؟ ليس لنا أحلام تسبق الزواج، طموح أن نبني مستقبلاً يسير جنباً إلى جنب مع الزواج؟ هكذا ببساطة ليس لهن إلا الزواج؟ هل معنى ذلك أني كنتُ أعيش خارج المفروض؟ كنتُ أعيش حياة مؤقتة حتى يأتي فارس الأحلام؟ ولكنه لم يكن في أحلامي!! لماذا جعلوا من الزواج فرض، ومنحوا القبول والاطمئنان لهذا القادم؟ من بعيد أتى وللبعيد يريد سحبي، كيف يمكن أن أرفض وأعود لحياتي دون أن أُحزن أسرتي التي خلقتْ لها هذه الخطبة بهجة وفرح، هل أرفض هذا الزواج؟ ماذا أبرر؟ فقط لا أريد الزواج، لن يتقبل أحد مني هذا الكلام، سيتشككون بالسبب ويتخيلون ما ليس موجود، هل أرفض الهجرة؟ ولكن العريس هناك يعيش، الهجرة حلم وردي لدى الكثير، ماذا أبرر؟

كافة نقاشاتي مع أمي ذهبتْ أدراج الرياح، "البلد يمر بظروف صعبة، والحرب تدق الأبواب انفذي بجلدكِ، هاجري، إنكِ محظوظة". كل احتجاجاتي لأبي لم تجد أذاناً صاغية، قال لي بصرامة لم أعهدها منه "إنه شاب جيد؛ يعيش ويعمل في أمريكا فلِمَ لا تقبلين به". ولكنه عاد واستدعاني ذات يوم، وجلس يخاطبني بصوته الحنون قائلاً:

- يا ابنتي إن الزواج مقدس وقدر كل فتاة؛ وقد قال الله تعالى في سورة الحجرات: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" وفي سورة الروم قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحمة إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ". كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: "إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض". وهذا أتى لا يعيبه شيء؛ فلِمَ لا نوافق عليه، الهجرة أصبحتْ سهلة في زمنكم هذا، في أي وقت يمكنكِ زيارتنا، وفي كل وقت يمكنكِ التواصل معنا، لم تعُد الهجرة هي تلك الغول الذي يلتهم البشر؛ فلا يعودون إلى موطنهم كما كان الحال في الزمن البعيد.

صمتُ؛ وبدأتْ دموعي تأخذ طريقها معبرة عن الحزن الذي أشعر به في أعماقي، نظر إليّ أبي وقال وهو ينهض:

- لا تدعيني أندم أنْ سمحتُ لكِ بالعمل.

وأسرّتني أمي هامسة كأنها تخشى أن تسمعها جدران الحجرة:

- لقد تخرجتِ منذ عامين ولم يتقدم لكِ أحد حتى الآن، إنكِ تعلمين أن أغلب الأمهات يبحثْنَ عن فتيات غير موظفات حتى يتفرغْنَ لأولادهن، والزواج هو قدر كل فتاة وليس العمل.

شردتْ قليلاً ثمّ عادتْ تهمس:

- لقد درستُ أنا أيضا الجامعة كما تعلمين؛ وتخصصتُ باللغة الإنجليزية وأحببتُها كثيراً، ولكني تركتُ الجامعة ولم أكمل دراستي لأن جدتكِ أم أبيكِ اشترطت ذلك. أحببتُ اللغة الإنجليزية كثيراً كما أحببتِ أنتِ مجالكِ، ولكني لم أتخذها مهنة.

اكتشفتُ أن حياتي كلها منذ أن بدأتُ الدراسة إلى أن عملتُ بالشركة كانتْ فقط استغلالاً للوقت الضائع حتى يأتي العريس من عالم الغيب، شعرتُ أني كنت ألعب، ألهو كما يلهو طفل قبل أن تسحب منه أمه الألعاب، وتطلب منه أن يخلُد للنوم، هكذا سارتْ حياتي بعد ذلك اليوم،ُطلب مني تقديم استقالتي، دون مقدمات ولكن بعذر واحد "سوف أتزوج"، لم يسمح لي بإكمال مشاريعي التي كنتُ أعمل عليها ليل نهار، مشاريعي التي كنتُ أهبُ لها وقتي حتى في المنزل، تركتُها، لا أدري ما كان مصيرها، أصبحتُ فتاة خالية من المسؤولية، هكذا أحبتْ أمي أن أظهر أمام العريس، مستعدة للحاق به فور طلبه. سار الأمر في طريق التنفيذ، وكأني أعلنتُ موافقتي، ولكني أذكر جيداً أني لم أوافق، وحتى لم يُأخذ رأيي وأُعتبرتْ موافقتي تحصيل حاصل.

*****

تم العرس بعدها بشكل سريع لدرجة أني لا أجد في ذاكرتي تفاصيل تجهيزات العرس ولا تجهيزاتي الخاصة؛ ولا أذكر أن بهجةً ما سكنتْ قلبي، كان العريس قد حضر مع عمّه وأخبرنا أنه سيبقى لشهر واحد فقط ويعود لمعاملة أوراق التحاقي به؛ وأن علينا الإسراع بالعرس. وجدتُ نفسي عروساً بين ليلة وضحاها، صديقاتي حولي يباركن لي- لديّ الكثير من الصديقات-، ولكن أقربهن لي هي (سمر) صديقة الطفولة، وهي الوحيدة التي كانتْ تعي ما أمُر به؛ وتعلم أني غير سعيدة. لم يكن الزواج هو المسار الجديد في حياتي، هناك مسار أصعب، الهجرة!! عليّ السفر إلى أمريكا حلم الجميع، ولكنه ليس حلمي، ويبعدني تماماً عن الحلم الساكن في أعماقي. ضجيج الحفلة حجب عنّي كل تفكيري ووجدتني لا أفكر، ضباب أسود كثيف غشى عقلي، وعشتُ الواقع كما هو وكيفما هو.

كان العريس- واسمه خالد- قد أخذ شقة صديق عمّه؛ وسكنّا فيها بعد العرس ما تبقى من ذلك الشهر، كنتُ قد التقيتُ به قبل العرس يوماً واحداً فقط، حدثني بشكل مقتضب عن حياته وعمله في أمريكا؛ وأنه يعمل في مراكب شحن تغادر لفترات طويلة، ورغم أنه عملٌ شاق إلا إنه جيد مقارنة بعمله السابق تحت الأرض في مناجم الفحم التي سببت له الكثير من الأمراض. اشفقتُ عليه وأشفقتُ على نفسي؛ ولم أدر إلى أين ستقودني الحياة، فقدتُ السيطرة تماما على حياتي؛ وكنتُ أحسب أني متحكمة بها، وأن خطتي تسير كما وضعتها بحذافيرها قبل أن يأتي هذا العريس.

كان خالد رجلا طويل القامة، ضعيف البنية، شعره أسود ناعم، نظراته دائما شاخصة للأفق وكأنه يفكر بعمق، سمرته تبدو جلياً إثر شمسٍ حارقة، رجلاً عركه الزمن والظروف؛ وخلقتْ منه رجلاً متذمراً، قلقاً، يحاول أن يبدأ حياته بتكوين أسرة علّها تضفي لحياته معنى.

خرجنا خلال هذا الشهر مع أخي لزيارة دار الحجر، وأسعدني أن أراقب زوجي برفقة الآخرين، كان يرتدي ثيابه المعتادة بنطلون جينز رمادي اللون وأحيانا أزرق داكن مع فنيلة قصيرة الأكمام وفوقها قميص مفتوح، وكان يضع على رأسه دائما قبعة بيضاء يترك مقدمتها خلفه. سمعتُه يتحدث مع أخي يعبر له عن جمال وروعة القصر القابع على صخرة كبيرة. حرصتُ على زيارة دار الحجر؛ حتى يتعرف خالد على معلم من أهم معالم بلده اليمن. كان أخي يشرح لزوجي عن دار الحجر؛ وأنه معلم تاريخي بارز في اليمن، وهو جزء من التراث الثقافي والتاريخي لها. انبهر خالد بدار الحجر، وأُعجب بواجهاته الجميلة والمزخرفة بالزخارف والنقوش الفنية، والتقط أخي لخالد عدة صور تمنعتُ عن المشاركة بأي منها.

كنتُ أمشي ورائهم تارة، وبجانب أخي تارة أخرى، أصغي وأسمع وأحاول أن أعرف لخالد شخصية محددة؛ سمعتُه يعبر لأخي أن خيار البقاء في الوطن كان أفضل له لو تم يومها (عندما توفي والده)، وأن الحياة في أمريكا ليستْ كما يتناقلها الحالمون بالذهاب إليها، الحياة هناك ليستْ رائعة كما يتوقعون؛ ولا فرص العمل منتظرة للقادمين، عندما أخذه عمّه إلى أمريكا كان أصغر عمراً من أن يستوعب أو يرفض، ولكنه الآن يشعر أنه غريبٌ في اليمن؛ لا يعرف أحد ولم يعُد قادراً على البقاء فيها.

في النهاية قضيناً وقتاً جميلاً؛ حكى لنا خالد بعض النكت التي تحدث للمهاجرين الجدد في أمريكا ومنهم اليمنيين، وتحدث أخي عن أصدقائه الذين مازالوا يتخيلون الفردوس فقط خارج اليمن، شاركتُ أنا بكلمات قليلة عبرتُ فيها بصدق أن الحياة في اليمن جميلة؛ ولا نحتاج لفردوس الآخرين.

في اليوم التالي ذهبنا لتناول الغداء في بيت أهلي، فوجدتُ خالد شخصاً آخراً، لبس بدلة العرس السوداء دون ربطة العنق، كان قليل الكلام، مضطرب، ردوده على أسئلة أبي مقتضبة، ينظر إلى طبقه أو إلى الطاولة أثناء الرد، همس لي بعد تناولنا القهوة أن علينا الانصراف.

حاولت أن اتجول معه في صنعاء حتى يتعرف عليها أكثر، ربما كنتُ أفكر أنه قد يحبها، ويقرر البقاء فيها، وأعود أنا لعالمي، فطلبتُ منه أن نخرج للمشي في حديقة السبعين التي تحتل مساحة واسعة من ميدان السبعين؛ أخبرتُه أنها حديقة جميلة، وتعتبر مُتنفساً للسكان وفيها مساحات خضراء شاسعة وكبيرة، بالإضافة للعديد من المرافق الترفيهية والألعاب؛ فلم يرحبْ وأخبرني أنه لا يحب التنزه كثيراً؛ ولكني ألححتُ عليه حتى وافق. كانتْ مزدحمة في ذلك اليوم وكثير من الأسر مع أطفالها يفترشون المساحات الخضراء، وأمامهم المأكولات التي جلبوها من بيوتهم، ويجلس بعض الرجال متكئين على المداكي يتناولون القات. وهناك أسر جلبتْ معها حتى النرجيلة، كما كان هناك مجموعة من الفتيات منهن المنقبات ومنهن المحجبات دون نقاب يستمِعْنَ إلى موسيقى من أحد الهواتف ويتبادلْنَ الأحاديث المرحة، وعندما مررنا أمامهن علّق خالد بصوت منخفض بأنهن فقدنْ حياءهن؛ لأن أصواتهن عالية، وأنهن يتعمدْنَ ذلك لجذب الانتباه. استغربتُ لذلك الرأي، ونظرتُ إليهن فوجدتُهن يعشْنَ عالمهن غير آبهات بالآخرين ولا يعرْنَ من حولهن أي اهتمام، ولكن ملاحظة خالد أقلقتني وأعطتني صورة مبدئية عن طريقة تفكيره ورأيه بمرح الآخرين.

عدا تلك النزهات المحدودة، قضينا أغلب أوقاتنا في الشقة؛ بعد أن تأكدتُ أنه لا يحب التنزه ولا يستمتع بالخروج، كان يقضي وقته مع الهاتف أكثر مما يقضيه معي، وقليلاً ما كان يسألني عن حياتي، ولكنه حدثني عن نفسه، وكان يقطع حديثه ضحكات خافتة ساخرة؛ وكأنه يخجل

ممّا يحكي؛ أو أن مرارة الذكرى تزعجه. لم يحظَ خالد من العلم إلا القليل، درس الصفوف الابتدائية في اليمن؛ وعندما توفي أبوه أخذه عمّه معه إلى حيث كان يعيش في أمريكا، وهناك أكمل الدراسة، لم يستطع النجاح بسهولة، فكل شيء كان جديداً عليه، وشكّلت له اللغة عائق، تعثر كثيرا، تعلّم من عثراته وأكمل صفوف المدرسة؛ وفي نهاية المطاف، أخذه عمّه لسوق العمل مباشرة بعد المدرسة. بدأ العمل في بقالة يملكها عمّه ويمنيون أصدقاء لعمه، لم يحب ذلك العمل، كان يتذمر دائماً ويتغيب عن البقالة كثيراً؛ ويقضي جُلَّ وقته مع أصدقائه، فخاف عمّه أن تؤول الأمور إلى ما لا تحمد عقباها، فجرّه للعمل في المناجم بمجرد أن تخطى العشرين من عمره. وهكذا سارتْ حياته لا يدري كيف، ولكن عندما وجد الطبيب أن عمل المناجم غير مناسب له صحياً تركه؛ فوجد عملاً في ميناء على سفن شحن، رغم ثقل الحمولات إلا أن مرأى البحر بدا أفضل من منظر باطن الأرض، وسارتْ حياته على هذا المنوال سنوات طويلة واقترب من الأربعين قبل أن يتنبه أن عليه تكوين عائلة. هذا ما استطعتُ معرفته عن خالد الرجل الذي يُفترض أن أعيش معه بقية عمري، بالتأكيد لم يكن هو فارس أحلامي عندما كنتُ فتاة مراهقة تحلم بفارسها، ولم يكن الزواج من اهتماماتي عندما بدأتُ أنبغ بالدراسة والعمل، ولكن هذه أصبحتْ حياتي التي ينبغي عليّ أن أعيشها.

*****

وهكذا انتهى الشهر ولم أتعرّف على زوجي بما فيه الكفاية، لم أعرف طباعه، كان رجلاً انطوائياً، كتوماً، يصعُب التعرُّف عليه بسهولة، ومع الأسف لم أجد له في قلبي صدى. عاد زوجي إلى أمريكا، وعدتُ للانتظار في بيت أهلي مع قائمة من الممنوعات "لا داعي للعمل نهائياً، لا داعي للزيارات الكثيرة، أُفضل فقط ما تذهب إليها أمكِ، لا داعي.. لا أفضل... لا أحب ..." وغيرها من التفصيلات التي وضعها خالد لتشكيل حياتي الآتية.

لم أستوعب كل تلك الشروط! ولم أفهم لماذا؟ والغريب لم أحتج!!، وشعرتُ أن ما يحدث هو حلم سوف استيقظ في الصباح فأجد نفسي كما عهدتها تستعد للذهاب للعمل؛ وكل ما حدث هو مجرد كابوس. شعرتُ أني أعيش حياة فتاة أخرى، لا يحق لي الاعتراض أو حتى إبداء الرأي... وهكذا سافر خالد، ووعدني أن المعاملة كما يعرف من أصدقائه سوف تأخذ بضعة أشهر، وبعدها سوف أجد نفسي في أمريكا، وانتظرتُ ......

وجدتُ نفسي عدتُ ثانية لحجرتي في منزل أهلي، بفارق أن حولي كثيرٌ من القيود الخفية تُقيد حياتي، أصبحتُ زوجة مع وقف الحال. كانتْ صديقتي المقربة سمر أكثر من تأتي لزيارتي؛ وكانت تعمل أيضاً ومؤخراً وجدتْ عمل جديد في تصميم المواقع ونجحتْ بالحصول عليه، وكانت سعيدة به وتحدثني عن مهامها وتطلب رأيي في كثيرٍ مما تعجز عن عمله. كنتُ أقضي

جُلُّ وقتي أقرأ الجديد في تصميم وتطوير المواقع من مقالات وأبحاث، وأسجل بعض ممّا أقرأه وكأني عُدت طالبة، ثم مللتُ من هذه القراءات وبدتْ لي لا معنى لها؛ وفقدتُ حماسي وشغفي بها مرة واحدة؛ واتجهتُ لقراءة الروايات والقصص، وعشتُ مع أبطال القصص حياتهم، أفراحهم وأحزانهم. كانتْ مكالمات زوجي قليلة فهو إمّا بعرض البحر أو في ميناء الشحن، وبكل الأحوال لم يكن لنا حياة مشتركة نتبادل أخبارها، ولكنه سألني بأحد مكالمته فيما إذا كنتُ حامل، ولكن لا، لم يشأ الله بعد؛ ولم يتم الحلم الذي توقع زوجي أن تفاجئه الحياة به.

بحثتُ على النت عن ولاية ميتشيغان حيث يعيش زوجي والذي يُفترض أني سأعيش فيها، قرأتُ عنها الكثير، عن موقعها شمال شرق أمريكا؛ وعن البحيرات الأربع التي تحيط بها فسرحتُ متخيّلة نفسي أجوبُ بعضاً منها على مركب سياحي جميل، شاهدتُ بعض الصور فهالني جمال الطبيعة، وتخيلتُ نفسي أتنزه في هذه المتنزهات مع خالد نقضي ساعات طويلة على هذه الحشائش، نراقب البط يسبح بهدوء فوق سطح البحيرة، تنفستُ بعمق وانتظرتُ انتهاء المعاملة بخوف وأمل خجول.

عشتُ حياتي بهذه الطريقة شهوراً كثيرة، أعوض حرماني من عملي من خلال مساعدتي لسمر وسماع قصصها عن العمل ومشاكله والمواقف المضحكة التي تحدث فيه، كانتْ تحدثني عن كل شيء فأعيش معها الحدث، وأسألها عمّا أُستجد في ذلك الموقف أو ذاك الحدث.

كانتْ سمر صديقة طفولة، درسنا معاً في نفس المدرسة؛ والتحقنا بنفس الجامعة ونفس التخصص، كانتْ أحلامها تنصبُ على فتى الأحلام والزواج والأطفال؛ بينما أحلامي تنصبُ على النبوغ في مجالي؛ وتصَدُّر قائمة المشاهير في تصميم المواقع، ضحكتُ أنا من بساطة حلمها؛ وضحكتْ هي من استحالة حلمي.

*****

ولكن سمر قطعتْ زياراتها مضطرة؛ وتبدلتْ الحياة بين ليلة وأخرى؛ فقد قامتْ الحرب فجأة؛ فرغم أن مؤشراتها كانت تتزايد يوماً بعد يوم، احتجاجات، خيّام منصوبة في الساحات، ضجيج "ارحل" يصُمُّ الآذان... ولكننا مع ذلك لم نتوقع الحرب، حتى عندما غادَرنا موظفو سفارات العالم، لم نتنبه لما يُحاك خلف الكواليس ولم نتوقع قيام حرب. حلّقتْ عشرات الطائرات فوقنا في ليلة سنذكرها كيومٍ فارق في حياتنا نحن اليمنيون يوم 15 مارس 2015. وحدث ما توقعتْه أمي "إنها الحرب" ولكن بقية توقعها- أن أنجو أنا من تلك الحرب- لم يتحقق.

تغيرتْ حياتنا مع كل تلك الفوضى في ذلك العام؛ وتعطلتْ الحياة في صنعاء وبقية المدن؛ ورحلنا إلى قريتنا كما رحلتْ أغلب الأسر، فزادتْ صعوبة اتصالات زوجي إلى أن انقطعتْ

الصلة تقريباً، كنتُ أعلم أن أمي تشعر بالذنب على تشجيعها لزواجي الذي تعثر بشكل سيئ، لكن أبي ما زال عند رأيه وهو الصبر؛ فلا شيء يتم بين يوم وليلة.

كنا نتابع من قريتنا قدر ما نستطيع عن أخبار صنعاء؛ وكل تلك الضربات التي كانت تتلقاها دون ذنب؛ واختلطتْ الأخبار، فلم نعُد ندري ما هو التحالف الذي تحالف مع صنعاء لضربها؛ ولا ما كل هذه الصراعات الداخلية التي برزتْ بشكل مخيف من قاع الأرض والتي تزيد الأمر بشاعة، فقط موت، دمار هو ما كنا نعرفه ونعيشه دون معرفة الأسباب. تشتتْ الناس هنا وهناك، رحلتْ بعض الأسر إلى بقاع الأرض كيفما أُتيحتْ لهم الفرص، غادر كثير من الشباب حاملين أحلام يخشون موتها، وبقي الكثير والكثير يعاركون الحياة..

أكملتُ عام منذ زواجي ولم تتضح الأخبار، ومرتْ الشهور واعتاد الناس الحرب والصراع الداخلي؛ وبدأ البعض يعود من القرى كما عدنا نحن أيضا؛ وعادتْ الحياة تسير تحت ثقل الظروف الصعبة والأزمات والاختناقات وانعدام كل أساسيات الحياة الطبيعية التي كانت أصلا ضعيفة فانهارتْ. عادتْ بعض الأعمال إلى مزاولة أنشطتها، بعد أن شُلّت حركتها بسبب تلك الحرب؛ ولكن المشاكل زادتْ حدة فانقطعتْ الرواتب، وأُغلقتْ الشركة التي يعمل بها أبي أبوابها، فوجد أبي نفسه دون عمل. وكما تركتْ السفارات الأجنبية بلادنا قبل نشوب الحرب بوقتٍ قصير، تركتْها أيضا المنظمات الأجنبية بعد الحرب مباشرة ومنها المنظمة المستأجِرة لعمارة أبي وأعمامي ففقدنا دخلنا الآخر. هبّ إخوتي للمساعدة وخاصة أنهم كانوا يعملون في قطاعات خاصة ورواتبهم مستمرة، ولم أستطع المساعدة التزاماً بأوامر وتعليمات زوجي الذي أعلمنا أن المعاملة تعثرتْ بسبب خطأ بسيط في البيانات، وأن الحرب ساهمتْ بالعرقلة، ولكنها ستكتمل بالتأكيد عن قريب، وقال لي على الهاتف إنّه كان يود زيارتي، ولكن الحرب حالتْ دون ذلك، واكتملتْ السنتان من عمر زواجي المتوقف.

استسلمتُ للوقت وتركتُه ينساب من بين أصابعي دون أن أعيره اهتماماً، وانسابتْ معه كل أحلامي وشغفي، وكل تطلعاتي التي بنيتها منذ أول سنة لي في الجامعة إلى أن جاء قرار تزويجي. تقدم شاب لخطبة سمر صديقتي وتحدد موعد الزواج، فطلبتُ من زوجي السماح لي بالذهاب؛ وقبل أن يرفض ترجيتُه؛ بكيتُ عبر الهاتف بشدة؛ تملّكني الفزع ألا أستطيع حضور عرس سمر، فوافق شرط أن تذهب أمي معي. حضرتُ حفلة زواج سمر؛ وقابلتُ الكثير من صديقاتي اللاتي انقطعتْ صلتي بهن منذ أن تزوجتُ التزاماً بشروط زوجي الغائب، أسعدتني أخبارهن ما بين زواج وولادة طفل؛ وما بين عمل أو دراسة؛ كلهن دون استثناء تتحرك حياتهن؛ لم يتم تقييد هذه الحركة لا الزواج ولا حتى الحرب... هالتني هذه الحيوية المتفائلة التي يعيشها الجميع رغم الحرب؛ فلِمَ فقدتُها أنا؟

وبزواج سمر وانشغالها بحياتها الجديدة زادتْ عزلتي أكثر وأكثر، وبدأتُ اعتاد الوحدة لدرجة أني قلصتُ من خروجي مع أمي وحتى الجلوس مع أهلي أمام التلفاز، لم يعُد يريحني أن أجد نفسي بين الناس حتى وإن كانوا أهلي، وأشعر به كأنه عبء وواجب؛ ولم أعُد ارتاح إلا بوحدتي. فكرتُ كثيراً وهالني ما آل إليه حالي شكيتُ لأمي، بكيتُ لأبي، وقلتُ لهم لم أعُد أشعر بأني على قيد الحياة؛ وأريد أن انفصل عن خالد، فلا يبدو أن لديّنا نصيب للاستمرار، تركني أبي دون أن يقول كلمة، وصرختْ أمي قائلة:

- ماذا! تنفصلين؟؟هل تقصدين الطلاق؟!! هل ترغبين أن تكوني مطلقة قبل أن تختبري معنى الزواج والأسرة، هل تتخيلين أن الطلاق بهذه البساطة؟ ألا تعلمين وضع المطلقة في مجتمعنا، ولماذا؟ هل لأنه تأخر قليلاً في المعاملة؟

صمتتْ أمي فترة كأنها تغوص في ذكرى بعيدة؛ شاركتُها الصمت حتى قطعتْه قائلة:

- ألا تعلمين أن النساء ينتظرْنَ أزواجهن سنوات عديدة وقد يعودوا أو لا يعودوا! ومع ذلك لا يطلبْنَ الطلاق. لقد انتظرتْ ابنة عمي زوجها خمس سنوات منذ أن هاجر بعد الزواج بشهرين، خمس سنوات دون حتى زيارة، وتحملتْ مسؤولية تربية ابنها الذي لم يعرف أباه حتى بلغ الرابعة من عمره، لم تتذمر ولم تطلب الطلاق، لقد استقبلتْ زوجها العائد من غربته بفرحة ودون شكوى. ومثلها كثير من النساء يا ابنتي ومع ذلك لا يفكِرْنَ بالطلاق.

- ولِمَ عليّ الانتظار؟ لو أنه سمح لي بالعمل لسارتْ الحياة بشكل طبيعي.

- هذا قدركِ، والفتاة الصالحة تقبل بقدرها كيفما كان، يجب أن تعلمي أن الزواج سنة الحياة؛ فلا تُعارضين سنة الحياة يا ابنتي.

*****

استغربتُ ألا يستوعب أهلي حالة الركود التي أعيشها، استغربتُ أن يتجاهلوا معاناتي الواضحة، هل تتحكم بهم قيود وعادات وتقاليد المجتمع أيضا! فلا يملكون الفكاك منها حتى وإن رغبوا بذلك؟ هل أنا ضحيتهم أم ضحية المجتمع؟ كم عام يمكن أن يمر من حياتي على هذه الأرض وأنا راكدة هكذا داخل البيت؟ لستُ موظفة أذهب وأعود من عملي، ولستُ زوجة أو أُمّ انشغل طوال اليوم بمهامي الأسرية!! كم سأبقى في هذه الحالة؟ ولمصلحة من نرضخ لهذه العادات ونبقى عاجزين عن تحرير أنفسنا وانقاذها من وهم الانتظار خوفاً من رأي المجتمع؟! هل يُعقل ألا نُقدِر سني عمرنا التي تمر ولا تعود؟ هل يُعقل أن نهمل أيام عمرنا ونسمح لها بالتسرب دون أن نغنيها بعمل ما، اهتماماً ما، أي شيء يجعلها ترحل محمّلة بحلاوة العمل وثمار التجربة وفرحة النجاح؟ الكثير من صديقاتي تزوجْنَ، منهُن من عادتْ للعمل ومنهن من توقفتْ، ولكن حياتهن جميعاً تمضي بحيوية وحركة وقناعة، حتى انتظار البعض (كما هو حالي) والذي زاد بسبب ظروف الحرب،

لا يمُر مثل حالي، خالياً من طعم الحياة، لِمَ فرض عليّ خالد كل هذه القيود، وجعل من الانتظار طعماً مُراً، لِمَ جمّد أيامي وجعل لها برودة قارصة، وصقيع لا أعرف متى يؤذن له بالذوبان أو الموت! لم أعُد أدري لِمَ علينا نحن النساء الرضوخ لحياة لا نرغب فيها؟ لِمَ يُعتبر عملنا تلهية وقت فلا يُقدر ويُعتبر مساهمة حقيقية للمجتمع؟ لِمَ يتم تجميدنا ونحن شريحة واسعة من المجتمع، ويتم استبعادنا من المشاركة في الحياة، وأخذ دور حقيقي في مجتمع نعيش فيه؟

أصبح السكون سمة حياتي والملل القاتل رفيقي الدائم، حتى أحداث الحرب لم تعُد تستحوذ على اهتمامي، صرتُ أتابع منها ما يقع أمامي على التلفاز وكأنّها دائرة في مكانٍ آخر، زمن بعيد لا أنتمي له ولا يعنيني، قرأتُ كثير من الكتب والروايات حتى ملّتْ مني، تابعتُ فيديوهات متنوعة كلما سمح لي توفر النت حتى تعب مني هاتفي، أنهى بطاريته ورفض إعادة الشحن، هل يمكن أن تنتهي حياتي هكذا؟ أرحل دون أن أعيش، دون أن أعرف لماذا جئتُ إلى هذا العالم؟ ولماذا رحلتُ؟ كيف أحافظ على النبض الباهت الذي لا يزال يدُب في جسدي؟ كيف أحفز نفسي أن الغد قادم وأنه سيكون مختلف، سعيد ربما!

*****

وأخيراً ومع قرب منتصف 2017 جاءتْ المكالمة التي تنتظرها أمي وتدعو أن تتم بكل صلاة. اكتملتْ المعاملة وعليّ الاستعداد للسفر والالتحاق بزوجي. برغم انتظاري لهذا الخبر إلا أنه هالني، فزعتُ من كسر وحدتي بهذا الشكل المفاجئ، سفر؟ وهل السفر في زمن الحرب سفر؟ ليس لديّنا مطارات ولا طائرات، ولا تُحلّق في سمائنا إلا الطائرات الحربية والصواريخ عابرة الأجواء تستهدف ذلك المكان أو ذاك؛ لا يهُم؛ المهم نشر الفزع والخوف والموت. لم تنس أمي أن تخبرني "أنكِ محظوظة فهناك من تجاوزتْ الخمس سنوات ولم تكتمل بعد معاملة التحاقها بزوجها في بلد المهجر"، كنتُ في نظر أمي دائما "محظوظة" ولم أعُد أناقشها؛ لإني كنتُ أعرف أنها تعلم أي حظٍ أعيشه.

ولكني فعلاً كنتُ محظوظة أني قدمت للحصول على جواز السفر قبل الحرب -عند معاملة الزواج-، فعملية تقديم طلب جواز سفر في زمن الحرب أصبحتْ من المعضلات. فبرغم المآسي الكبيرة التي نعيشها جراء حرب لا يبدو أن لها نهاية في الأفق، إلا أن هناك معاناة من نوع آخر هي حرية السفر والتنقل، ليس فقط بسبب توقف الرحلات نتيجة القتال والقصف المستمر، بل أيضاً بسبب صعوبة الحصول على جواز السفر أو تجديده. لقد أخبرتني إحدى صديقاتي والتي تحاول السفر مع زوجها خارج اليمن، أن زوجها انتظر أياماً وأسابيع في طوابير طويلة أمام مكتب الجوازات قبل أن يُعرض عليه دفع مبالغ مالية كبيرة؛ لتسهيل إصدار

الوثيقة من قِبل سماسرة جوازات يعملون بشكل غير رسمي للاستفادة من صعوبات الحصول على جواز السفر، ولكن مقابل مبالغ باهظة.

استعددتُ للسفر، ودّعتُ حجرتي التي عشتُ فيها سنين عمري، وحُجِزتُ فيها تقريباً منذ أن تزوجتُ، تأملتُ سريري والذي شاركني كل همومي وهواجسي وتقبّل دموعي برحابة صدر؛ ولم يقاطع في يوماً ما شكواي؛ ولا قلّل من قيمة دعائي الذي اعتدتُ أن أختم فيه سهري قبل أن تغفو عيناي على مخدته مع اقتراب ملامح الفجر الذي يحاول النفاذ من شق ستائر نافذتي الوحيدة، تأملتُ مكتبتي التي كدستُ فيها كل أنواع الكتب عن مجال تخصصي العلمي وخليط غريب من روايات وقصص قصيرة ومجلات؛ وهو ما صارتْ إليه حياتي التي لم يعُد لها ملامح واضحة، وتأملتُ طاولة دراستي والتي تحوّلتْ إلى طاولة عملي بعد تعيّني في الشركة التي تقاعدتُ منها مبكراً جدا؛ فتحولتْ إلى طاولة أضع عليها أشياء وأشياء كيفما كانتْ، لم يعُد لها هوية محددة، مثلي أنا، سحبتُ حاسوبي الشخصي إلى حقيبتي وقررتُ أن آخذه رفيقاً لي في رحلتي، وأخيراً تأملتُ لآخر مرة كل ركن في حجرتي وسألتُ نفسي "هل سأعود إليها في يوماً ما؟".

كان علينا اتخاذ قراراً بشأن السفر بالحافلة إلى عدن؛ تلك التي كنّا نصِلُها بأربع ساعات في الظروف العادية، ولكنها صارتْ تأخذ ساعات وساعات في طريق محفوفة بالمخاطر، أبدى أخي استعداده لمرافقتي والبقاء معي بالقاهرة حتى أحصل على الفيزة. كنتُ منزعجة من الكلفة الزائدة على أسرتي بمصاحبة أخي لي، ولكن بعد عدة أيام من النقاش والبحث عن أفضل الحلول، أخبرتنا أمي أن ابنة صديقتها- في نفس ظروفي وقد اكتملتْ معاملتها- سوف تسافر أيضاً إلى مصر للحصول على الفيزة ويمكن لي مرافقتها، كما يمكن لي السكن معها لدى خالتها والتي كانتْ على معرفة بأمي، ورحبتْ باستضافتي مع ابنة أختها. كان هذا الخبر أسعد خبر سمعتُه حتى أكثر من خبر اكتمال المعاملة، لأني وإن كنتُ أخشى السفر بمفردي، فأن البقاء في القاهرة بمفردي حتى يتم إصدار الفيزة لم يكن بمقدوري تخيُّله، ولم أكن أرغب بتحميل أخي وأبي جهد ومال سفر أخي معي في هذه الظروف، في الوقت الذي لم يكن زوجي يرسل لي أي مال؛ ولم يتحدث حتى بموضوع كلفة سفري وإقامتي بالقاهرة.

تعرفتُ على شيماء ابنة صديقة أمي، وكانتْ تقاربني بالعمر، تمتْ خطبتها لابن عمها والذي ذهب للدراسة في كندا؛ وعندما أنهى دراسته وحصل على أول عمل تقدم لخطبتها وتم العقد غيابي بتوكيل لأبيه، وبدأ في معاملة ضم زوجته له. شيماء فتاة جميلة الملامح، سمراء البشرة، متوسطة الطول، وجهها بشوش وفي عينيها بريقٌ مبتسم بشكل دائم. حدثتني عن نفسها أنها تخرجتْ من كلية طب الأسنان؛ واشتغلتْ عاماً كاملاً بأحد العيادات، وحدثتني عن خطيبها أو

بمعنى أصح زوجها واسمه (جميل) وكيف أحبّا بعضهما منذ الصبا، درس محاسبة في اليمن وذهب إلى كندا لدراسة الماجستير، أنهى الدراسة والتحق بسوق العمل؛ وحصل على الاقامة فتمكن من دعوتها، وأخبرها أن تُهيئ نفسها لرحلة الهجرة والاغتراب، كانتْ شيماء متحمسة للهجرة وتعتبرها تجربة تستحق أن تُعاش وعالم جديد ترغب باكتشافه؛ وأخبرتني أن معادلة شهادتها وحصولها على ترخيص العمل سيحتاج منها إلى جهد كبير كما عرفتْ، ولكنها كانتْ مستعدة لذلك، وتنوي العمل بجهد لدعم حياتها الجديدة، والوقوف على أرض صلبة حتى قبل أن تفكر في انجاب أطفال وتكوين أسرة. نصحتني باتباع خطتها؛ وأكدتْ لي أن تخصصي مطلوب جداً في أمريكا؛ وأني سأجد عمل بمجرد إعادة تأهيل نفسي وفقاً لمعايير العمل هناك. شيماء كانتْ مسرورة جدا؛ فهي تحب ابن عمها وسعيدة بذهابها إلى كندا. تبادلنا أرقام الهواتف وعقدنا صداقة طريق لا نعلم إلى أين ستقودنا نحن الاثنتان. سعدتْ شيماء أكثر عندما علمتْ أن زوجي في "ميتشغان"، وقالتْ إنها قريبة من مدينتها في كندا، حيث يعيش زوجها في "وينزر"، وأنها بالتأكيد ستقوم بزيارتي.

تجهزتُ للسفر واشتريتُ الملابس الشتوية، جمّعتُ بعضاً من صوري القليلة بالأصل وشهاداتي وحاسوبي الشخصي، ودّعتُ سمر، تحدثنا كثيراً، استرجعنا ذكريات سنوات المدرسة وكل تلك المقالب التي كنتُ أتلقاها منها، وذكريات الجامعة عندما كنا نبني أحلامنا وآمالنا، بكيتُ كثيراً وأنا أشعر شعوراً غريباً بقرارة نفسي أني لن أراها مرة أخرى، وأن رحلتي خط واحد واتجاه واحد وأني لن أعود، أنقبض قلبي وغلّفه الحزن، شاركتني سمر البكاء ولكننا حاولنا أن نتغافل عن هذه الخواطر، اتفقنا على التواصل الدائم؛ وتمنينا أن يكتب لنا القدر لقاءً آخرا.

*****

جاء يوم السفر، وكنا في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر، كان يوما بارداً يغطي الضباب قمم الجبال وشمسنا تحجبها الغيوم، ورذاذ خفيف يتساقط يشاركنا لحظات الوداع.

ودّعتُ أمي وأبي وإخوتي ولا أعلم متى سألتقي بهم مجددا، وعدّتُهم بسذاجة أو تجاهل بأني لن "أتأخر" كلمة قلتُها دون تفكير، وكنتُ أعلم ويعلمون أنها مجرد كلمة؛ فأنا مهاجرة إلى بلدٍ بعيد جداً.

"مهاجرة"!! يا لها من كلمة غريبة، لم أعتد عليها من قبل، لم أصادفها ولم أفكر بمعناها، كانتْ حدود معرفتي أن الإنسان يعيش في وطن ويترعرع، يعمل، يتزوج، يربي أطفاله فيه وفيه يموت، "مهاجرة"!! كلمة لم أقرأها حتى بكل تلك القصص التي قرأتُها، لا أعرف لها ملامح ولا أستطيع تخيُّل واقعها، ليستْ رحلة وتذكرة ذهاب وإياب، إنها ويا للفظاعة خط اتجاه واحد،

ذهاب فقط، ولكن هذا هو قدري؛ أن أجد نفسي أعيش تجربة غريبة عني، ربما فيها خير لي ربما! آمل ذلك.

واصلتْ أمي البكاء بصمت، وواصل أبي النظر إليّ نظرة فيها الكثير من القلق الذي يحاول أن يخفيه عنّي، مبتسماً ابتسامة باهتة مهما حاول تلطيفها. ودّعتُ منزلنا وحارتنا تلك التي قضيتُ فيها كل سنوات الصبا وباكورة شبابي وكل أيامي. وسارتْ بنا سيارة شيماء التي أتتْ لمنزلنا لتأخذني معها، مررنا في طريقنا على الشارع الذي تقبع في نهايته مدرستي والتي سمعتُ أنها أغلقتْ أبوابها بعد قيام الحرب، تبعثر أصحابها، ربما ثقل الهمّ عليهم؛ ربما رحلوا كغيرهم، مررنا أيضا من شارع الستين فمكنني من رؤية مبنى جامعتي من بعيد؛ ودّعتُها بدموع غزيرة صامتة؛ وتخيّلتُ حلمي يعتلي سطحها ويودّعني بابتسامة لا أدري حزناً ومواساة أم سخرية! وغادرنا شوارع صنعاء المبللة بمطر هطل ليلاً، والخالية من السيارات حيث كان الوقت مبكراً، إلا من دبابات وشباب صغير فوق أكتافهم بنادق، شاخصة عيونهم إلى الأفق، أوقفتنا نقاط التفتيش واليافطات أمامها تشير إلى الموت لتلك البلد التي أتوجه إليها، تحدث رجالها مع السائق، وتركونا نكمل طريقنا.

كنتُ مرتديةً النقاب بينما كانتْ شيماء مكتفيةً بالحجاب، فتمكنتُ من رؤية دموعها تنساب دون توقف ودون صوت، شاركتُها البكاء ودون صوت أيضاً؛ وتركنا صنعاء خلفنا لا نعلم متى نعود.

سارتْ السيارة بنا طريق طويل-غير المعتاد- متجهة إلى عدن، في الأمام شقيق شيماء الذي سيصحبنا إلى هناك، مرّ وقت قبل أن نبدأ أنا وشيماء تبادل الكلمات والحديث العام عن تلك المناظر التي تمُر بنا، وتطرُّق الحديث إلى صديقات اكتشفنا أنهن مُشترَكات فزاد الود بيننا. كان الليل قد أسدل بظلامه على المشهد كاملاً، سمعنا السائق يهمس لشقيق شيماء أنه سيأخذ طريق مختلف عمّا اعتادت قوافل السيارات المرور فيه مؤخراً، حتى يتجنب نقاط صراع جارية الآن، حذّره منها زميله السائر في هذه الطريق قبلنا برسالة على هاتفه، وفعلاً بدأنا نصعد طريق جبلي وعر، ولكننا مع ذلك وجدنا أنفسنا وسط اشتباكات اندلعتْ فجأة. فزعنا وتوقفتْ السيارة محمية بظلام الليل وقدرة وإرادة الله ألا يصيبنا مكروه. توقفتْ السيارة على جانب الطريق أسفل أحد الجبال وانتظرنا لساعات، غفونا دون أن نشعر، هدأتْ الاشتباكات وبزغ القمر من خلف السحاب يضيء لنا بضوء خفيف ملامح الطريق وواصلنا طريقنا بحذر، اختفى القمر خلف السحب فأحكم الظلامُ الدامسُ السيطرة قبل أن ينتصر الفجر معلناً مولد يوم جديد.

وصلنا عدن، ولم تكن عدن هي تلك التي زرتُها سابقاً مع أسرتي للتمتع بشواطئها الجميلة، كانتْ ملامح الحرب واضحة على كل جوانبها، شبح الخوف والفزع يُخيّم على ناسها في الطرقات وفي الشواطئ، الحياة تدُب بوهن، أصابها ما أصاب شقيقتها صنعاء، حتى البحر بدا هادئاً، لا موج يحركه ولا رغبة بالحياة تبدو عليه.

كنا قد استأجرنا في أحد الفنادق حجرة لنا أنا وشيماء تشارَكنا في أجرتها، وحجرة لشقيقها وسائقهم. قضينا يومنا نتبادل الحديث والأحلام، وتحدثنا عن الغربة وما تحتويه من فراق للأحباء، وقسوة البقاء دون أهل، دون صديقات، دون وطن. دار الحديث بيننا لوقت طويل؛ خلُدت بعده شيماء للنوم، ولكن النوم جافاني وأنا أشعر بفراغ داخلي وكآبة تغمر قلبي وروحي؛ ومشهد أبي وأمي وإخوتي يحتل مخيلتي؛ وشعرتُ بحرقة الفراق وخوف من الآتي. حاولتُ أن استرجع صورة خالد زوجي، فظهرتْ باهتة لم أميّز ملامحها، شعرتُ بالخوف وشعرتُ بنفسي وحيدة إلى حد القسوة.

في صباح اليوم التالي، ذهبنا إلى مطار عدن، كان مطاراً بسيطاً تركتْ الحرب ملامحها على أروقته، وتركتْ دموع المغادرين لون الحزن على جدرانه، ودعتْ شيماء أخاها بكثير من الدموع انسكبتْ منهما معاً، سمعتُه يهمس لها "كوني بأمان، هاتفيني إن رغبتِ بالعودة، لا تترددي".

ركبنا الطائرة، والخوف يتسلل إليّ، هل حقاً سترتفع بنا إلى عنان السماء، ستأخذنا بأمان إلى أرضٍ جديدة، كانتْ أول رحلة لي بالطائرة، وكنتُ أحرص على عدم اظهار الخوف وأنا أجد كل من حولي مشغولاً بهموم الرحيل لا بهمّ الطائرة. غادرنا عدن مودعين اليمن وارتفعتْ الطائرة تحمل مجموعة بشر هدهم الحزن والتعب، عائلات مع أطفالها الذين لم يستوعبوا بعد معنى وطن، رجال وشباب يغادرون على أمل عودة قريبة وبأوضاع أفضل، فتيات بمفردهن يغادِرْنَ أيضا إلى حيث يجِدْنَ القليل من الأمان ذلك الأمان الذي غادر اليمن دون بشائر عودة.

شعرتُ بالطائرة تسير بتأنٍ على أرض المطار ثمّ تسرع ويعلو حنين قوي قبل أن ترتفع بقوة إلى أعلى، نظرتُ إلى أسفل بفزع، فرأيتُ البحر يتلاشى بسرعة خلفنا، تتبعه الجبال بضخامتها وقوتها تبتعد هي أيضا، شعرتُ أن كل شيء ينتمي لليمن يتركنا ويبتعد للخلف، هدأتْ ضربات قلبي وأنا أشاهد الركاب جالسين في أمان، نظرتُ إلى شيماء بجانبي، ولكنها كانتْ غارقة في أفكارها، والدموع ما زالتْ تنهمر من عينيها بعد توديعها لشقيقها، قلتُ لها مواسية:

- شيماء إنكِ ذاهبة إلى زوجكِ، إلى حياة جديدة لا داعي لكل هذا البكاء.

نظرتْ إليّ وهي تمسح دموعها؛ وتحاول أن تبتسم، وقالتْ:

- لو لم يكن هناك حرب لهان الأمر، ولكن مع الحرب لا يستطيع قلبي أن يهدأ، أخاف يا صفية ألا أعود، أخاف أن أعود ولا أجد أهلي، أخاف أن تشتتنا الحرب إلى الأبد.

صمتُ وتسلل خوفها إليّ؛ ولم أجد ما أواسيها إلا تنهيدة من أعماق قلبي أحاول أن أخفف ذلك الخوف الساكن فيه، إنها خائفة من الغد وهي ذاهبة لشخص تعرفه منذ أن وعتْ على الدنيا، تعرف مع من ستعيش، تعرف الأحلام التي رسموها معاً، ماذا عنّي؟ من هو الشخص الذي سأذهب إليه؟ ماذا أعرف عنه؟ ماذا أعرف عن المكان الذي سأعيش فيه؟ ماذا ينتظرني؟ لا أعرف! نظرتُ مرة أخرى من النافذة فوجدتُ السماء والسحب تحتنا وفوقنا؛ وشعاع الشمس من بعيد يشرق، تأملتُ جمال المنظر، انبهرتُ وتناسيتُ كل قلقي.

*****

وصلنا مطار القاهرة وقت الظهر؛ كنتُ قد نزعتُ النقاب في الطائرة، وكانتْ تلك نصيحة شيماء لي؛ ولم أخبر زوجي ولم يخبرني عن هذا الشأن، ورغم أني أمشي بين الناس لأول مرة دون نقاب منذ أن ارتديته في بداية المرحلة الثانوية، إلا أني لم أشعر أن الأمر غريب، ووجدتُ أني اعتدت ذلك سريعاً، وأن الناس من حولي لا يعيرون تغييري أي اهتمام؛ والبشر حولنا مرتدين ثياب مختلفة ومتنوعة، جاءوا من بقاع العالم، والنساء منهن بالحجاب ومنهن بالنقاب ومنهن تاركة لشعرها حريته، عالم مزدحم، متنوع ومتلون. هالني الزحام الشديد والطوابير الطويلة أمام كبائن رجال المطار الذين يستكملون للمسافرين معاملة الخروج، لم أعتد على هذا الزحام ولم أتوقع مشاهدة كل هؤلاء الناس في مكانٍ واحد، كانتْ هذه أول مرة أزور مصر وأول مرة أخرج من اليمن، شدتنْي شيماء من يدي، ومشيتُ معها أتابع ما تفعله وأَعْجبُ لمعرفتها لكل خطوات وإجراءات السفر، أكملنا معاملتنا وأخذنا حقائبنا، وتوجهنا لبوابة الخروج؛ وأنا أتساءل في سري بفزع "كيف كنتُ سأقوم بكل هذا بمفردي؟؟".

كانتْ سيارة خالتها منتظرة لنا، ركبنا السيارة ونظرتُ إلى شيماء وشعرتُ كم هي فتاة رائعة، واثقة من نفسها، وتُسلِح نفسها بخبرات تحتاجها الحياة التي نعيشها؛ وتملك من تجارب الحياة ما يؤهلها أن تبني عليها. وتذكرتُ كيف كانتْ بعض الفتيات يعتبِرْنَ أني نموذجٌ يُحتذى به، نموذج لفتاة واثقة بنفسها، تعرف طريقها وماذا تريد، لها قراراتها، يا للسخرية!! لقد اكتشفتُ أني لا أعرف إلا طريق العمل والبيت، ولا أقرر إلا كيف أصمّم مواقع جيدة، اكتشفتُ أني خالية من أي معارف أخرى، لم أخرج من محيط منزلي وعملي القريب منه؛ أي نموذج يُحتذى به يمكن أن أكون؟ وأنا حتى هويتي غير معروفة، أقبع خلف نقاب حاجبةً العالم عني، لا أحد بالواقع يعرف ملامحي، أنا فقط "صفية" مجرد اسم ولا شيء آخر. وتذكرتُ عندما كنتُ مدعوة لورشة عمل في الأردن، رشحني مدير الشركة متوقعاً أنه يقدم لي فرصة رائعة لا يمكن لفتاة

طموحة مثلي أن تفوّتها، رفض أبي تلك الرحلة دون تبرير إلا أن "لا داعي لها"، واستني أمي وأخبرتني كيف أن الحياة خارج اليمن فيها كثير من المخاطر وأن "لا داعي لها"، ها أنا الآن خارج اليمن وحيدة، دون خبرة بأبسط معاملات السفر، دون ثقة، دون معرفة، من الواضح أن الحماية الزائدة تعود وبالاً على الفتاة، الحياة لا تبلغنا مقدماً ماذا نحتاج؛ علينا أن نستفيد دائماً من الفرص حتى نجمع خبرة ومعرفة، ها هي شيماء تقاربني عمراً، واثقة من خطواتها، تعرف الكثير مما يلزم معرفته؛ وتعرف طريقها جيدا ولا تحتاج لأحد يرشدها، لم تأتِ بهذه الخبرة من فراغ، لكن من مساحة من الحرية، من تجارب، من الاعتماد على النفس، هذه هي متطلبات الحياة.

وهكذا سرنا في شوارع القاهرة وأنا أتابع كل شيء يمر بنا من بشر وعمارات وسيارات إلى أن عبرنا الجسر، وشاهدتُ نهر النيل الذي طالما قرأتُ لنجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس قصص وروايات عنه، كان كما وصفاه، قوياً، صامداً، ورائعاً يهِبُ للبلد جمالاً متألقاً، إنه هبة من الله لهذه البلد.

وصلنا المنزل وكانت شقة جميلة واسعة؛ خالة شيماء استقبلتها بفرحة كبيرة حظيتُ ببعض منها؛ ورحبتْ بنا كثيراً؛ وأخيراً استقررنا في حجرة أُعدتْ لنا؛ واستلقينا نأخذ راحة بعد يومين متعبين مررنا بهما. ذهبنا في اليوم التالي مباشرة للسفارة الكندية والسفارة الأمريكية، وتركنا جوازات السفر وكان علينا الانتظار. مرتْ الأيام التالية هادئة؛ زُرنا خلالها بعض المحلات التي كانتْ شيماء ترغب بالتبضع منها وإكمال ما نقص من تجهيزاتها؛ أما أنا فقد حرصتُ على عدم صرف المال الذي أعطاني أبي؛ فقد قال لي بوضوح أن عليّ انفاقه لدعم حياتي الجديدة إذا لزم الأمر، وعلى أي حال لم أكن أرغب بالتبضع؛ فأنا لا أعرف ملامح الحياة التي سأعيشها، كما أن حقائبي مزدحمة بالملابس واحتياجاتي منها متوفرة ربما لسنوات قادمة. لم يتواصل معي خالد وأنا في القاهرة، وكان هذا اتفاقنا ألا داعي له طالما وأنا في طريقي إليه.

أصرّتْ خالة شيماء على عمل برنامج سياحي لنا خاصة بعد أن عرفت أني أزور مصر لأول مرة، فزُرنا أماكن كثيرة في القاهرة ومنها الأهرام التي هالني ضخامتها وضخامة أبي الهول، وسألتْنا خالة شيماء فيما إذا كنا نرغب بالدخول إلى داخل الأهرامات، ذُعرتُ شعرتُ أني سأختنق، واعتذرتُ بلطف ولم تتحمس شيماء أيضا. وزرنا البرج الذي طالما شاهدته بالأفلام خاصة القديمة منها، كان منظر القاهرة من أعلى البرج رهيباً، لم أشاهد شيئاً من قبل كهذا الجمال والرهبة، لم أتخيّل أن أكون على هذا الارتفاع في حياتي كلها، وقفتُ مشدودة بجمال المنظر. ولكن للجمال أنواع وألوان؛ فقد قمنا برحلة على قارب في نهر النيل في وقت رحيل النهار واقتراب الليل مع غروب الشمس، وأذهلني جمال النهر وسحر تلك القوارب التي تنساب

فيه، سمعتُ الأغاني تصْدُع منها مع الأضواء الملونة التي أُشعلتْ مع قدوم الليل. مر قارب كبير يُقام فيه حفلة عرس، ذُهلتُ وأنا أشاهد الرقص الشرقي الحي لأول مرة في عمري، كانتْ الراقصة ترقص على أنغام صاخبة؛ ويشاركها العروسان وأغلب المدعوين في بهجة وفرح رائعَين.

أحببتُ مصر ووجدتُ فيها جمال وأمان فقدتُ الشعور به منذ أن اندلعتْ الحرب في بلدي. تمنيتُ لو كانتْ هجرتي إلى هنا لكُنتُ أحببتُ الهجرة، ولكُنتُ شعرتُ بقرب الوطن ودفء البلد، ولكنتُ أنِستُ اللغة والعادات والتقاليد المقاربة بطريقة أو بأخرى لتقاليدنا. تعرّفنا على بعض الأسر اليمنية التي جاءتْ ترحب بالعروس شيماء، وأذهلني جموع اليمنيين في مصر وكأن جزءٌ كبيرٌ من اليمن قد انتقل إلى هناك. وقد أخبرتنا خالة شيماء أن أسر كثيرة ممن تملك إمكانيات العيش الكريم قد وصلتْ القاهرة؛ منها بعد الحرب مباشرة ومنها بعد شهور من اندلاعها؛ وسرعان ما تملَك أغلبهم الشقق والفلل في الأحياء الجديدة؛ واستمر توافد الأسر اليمنية حتى تكوّنتْ جالية كبيرة غير تلك التي كانتْ تسكن مصر منذ سنين طويلة.

كانتْ شيماء قد أخبرتني أنها تنوي خلع الحجاب في كندا؛ لأنها لا تريد أن تكون مختلفة حسب تعبيرها، رغم علمها أن هناك الكثير من النساء العربيات والمسلمات محتفظات بحجابهن ومنهن من تحتفظ حتى بالنقاب، ولكنها دائماً لا تقتنع بظهورها بمظهر لافت للنظر تبدو به مختلفة عمّن حولها في المجتمع. ولم أوافق شيماء على خطتها ولم أعارضها؛ فقط قلتُ لها أني لا أعتقد بأني سأنزع حجابي، ولستُ متأكدة أني سأختلط بالمجتمع.

مر شهر، كنا أنا وشيماء- شريكات الرحلة- نتبادل الأخبار، تتواصل هي مع أهلها ومع صديقاتها، وأتواصل أنا مع أهلي ومع سمر، كانتْ الأخبار في اليمن تضُجُ بالأحداث وبالمعاناة وبانعدام فرص العمل، والكل يحاول أن يجد له منفذاً للبقاء على قيد الحياة. بعد مكالمة طويلة بين شيماء وإحدى صديقاتها، عادتْ تخبرني مبتهجة أن كثيراً من الفتيات منهن صديقاتها لجأْنَ إلى العمل اونلاين، يتاجِرْنَ بالمنتجات اليمنية إلى بعض من دول أوربا حيث لهن مُعرِف أو صديقات، وهن بذلك يحصلْنَ على دخل جيد يعينهن على الحياة، سُرِرتُ أنهن يتحركْنَ ويحاوِلْنَ إيجاد مخرج من الركود التي تمر به البلد، وتيقنتُ أن المحن تصقل قدرة البشر؛ وتجعله يتخطى ما كان يعتقد أنه صعب.

كانتْ خالة شيماء قد أخبرتني قبل أن تحصل شيماء على جواز سفرها بفيزة كندا؛ أن زوجها ينوي مفاجأتها والقدوم إلى مصر لمرافقتها بالرحلة الطويلة إلى كندا؛ وأنها تنوي عمل حفلة صغيرة لهما. وهكذا بينما كنتُ بالحجرة التي أسكنها أنا وشيماء أقرأ إحدى القصص التي كانتْ موجودة على رفوف مكتبة صغيرة، سمعتُ صيحة بهجة من شيماء؛ فعرفتُ أن زوجها قد

وصل. أقامتْ خالة شيماء حفلة لها؛ ولبستْ شيماء الثوب الأبيض الذي أحضرتْه معها؛ وحضرْنَ عدد من صديقات الخالة وقدمْنَ لشيماء الهدايا؛ وقضينا ليلة جميلة انتهتْ بدخول جميل -عريس شيماء- وتلبيسها خاتم الزواج، ومغادرتهما إلى فندق كان جميل قد حجز فيه غرفة لهما. بقيتْ شيماء وزوجها في مصر أسبوع، كان بداية شهر العسل الخاص بهما، ثمّ غادرا، بكتْ شيماء وهي تودّعني وتعِدني بلقائي في أمريكا؛ وبكيتُ أنا بحرقة أكثر، وتمنيتُ لها حياة سعيدة. لم يطل بي المقام وحيدة في بيت خالة شيماء؛ فقد وصل جواز سفري مع الفيزة بعد سفر شيماء بأسبوع؛ فغادرتُ مباشرة شاكرةً للخالة استضافتها ودعمها الذي كان آخره توصيلي للمطار. رغم أني لم أصل بعد لوجهتي الأساسية، إلا أني شعرتُ كأنّي قد عشتُ شهوراً طويلة هنا، هالني رؤية العالم خارج اليمن، أناس يعيشون في بقعة مختلفة عن وطني الحزين، حياتهم ذات وتيرة أسرع، اهتماماتهم وطموحهم أكبر، فتياتهم متواجدات حاضرات في مختلف مناحي الحياة، منهن بحجابهن ومنهن دون حجاب وقليلٌ خلف النقاب، والجميل تلك الحرية التي تغمر البلد، وتجعل العراك مع الحياة يكسب طعم النجاح.

*****

(2)

بعد رحلة طويلة ووقت صعب ومعاناة فهم اللغة؛ وبعد استعادة تجربتي في مطار القاهرة ومع مساعدة البعض خرجتُ- بسلامة الله- من بوابة الخروج ومعي الحقيبتين الصغيرتين، وانتظرتُ بالخارج. كنتُ ارتدي معطف شتوي، ولكن البرد كان شديداً جداً؛ فقد كنّا في نهاية ديسمبر من العام 2017؛ كان المنظر أمامي عبارة عن لوحة كبيرة مُغطاة بالثلج، لأول مرة أرى ثلج، انبهرتُ، شدّني المنظر كثيراً، ولكنّي في نفس الوقت شعرتُ بالبرد الشديد يتسلل إلى أعماقي مخترقاً ذلك المعطف الذي توقعتُ أنه سيفي بالغرض.

طال انتظاري وأصابني القلق والفزع؛ وتخيّلتُ ماذا لو لم يحضر خالد لأي سببٍ كان؟ ماذا سأعمل؟ لو كانتْ شيماء معي أو لو كانتْ في مكاني كيف كانتْ ستتصرف؟ هل كانتْ ستجد المخرج سريعاً؟ هل كانتْ إجادة اللغة ستساعدها في معرفة طريقها؟ كيف فاتني تقوية لغتي أثناء فترة الجمود والانتظار الذي عشتُه في اليمن بعد الزواج؟ ولكن هل كان خالد سيسمح لي بالذهاب للمعهد؟ عموماً لا وقت لتأنيب الذات، فلأدعو الله أن يأتي خالد.

كانتْ الحركة أمامي تسير بوتيرة عالية، الكل يرتدي الملابس الشتوية والقبعات تغطي رؤوسهم والشيلان الصوفية تغطي نصف وجوهم، والقفازات الشتوية تغطي كفوفهم، تأملتُ المنظر حولي وأخذتُ أتأمل الجانب الإيجابي "أنا في أمريكا!! هذه هي أمريكا!!" وتذكرتُ العبارة على يافطات نقاط التفتيش "الموت لأمريكا" فانتابني الضحك، ضحكتُ بصوت منخفض، وانتهتْ الضحكة بدموع مسحتُها سريعاً، وأنا أسمع شخص ينادي اسمي "صفية". كان رجلا كبيراً بالسن؛ عرفتُه إنّه العمّ أحمد- عمّ خالد-؛ فقد حضر مع خالد عندما أتى للزواج بي. رحب بي العمّ أحمد؛ وسحب أحد الحقائب تاركاً لي الأخرى، وسرتُ خلفه وأنا أسمعه يقول خالد على مركب شحن في عرض البحر سوف يأتي بعد أسبوع. سرنْا إلى حيث أوقف سيارته، وضع الحقيبة على الكرسي الأمامي، وذهب يحتل مكانه أمام مقود السيارة، بينما أدخلتُ حقيبتي إلى السيارة؛ وجلستُ بجانبها من الجهة الأخرى، وأغلقتُ الباب وأنا أشعر بمرارة الغربة تهبط من قلبي إلى معدتي وتصيبني بألم تجاهلته تماماً.

سارتْ السيارة في شوارع مزدحمة وعلى جانبيها عمارات شاهقة، شوارع جميلة وواجهات محلات ضخمة والكثير من المتنزهات الواسعة ممتدة على طول الطريق، وأجمل المناظر كانتْ لأشجار رأس السنة أمام أغلب البيوت، وأمام واجهات المحلات الكبيرة أشجار كبيرة وصغيرة مُزيّنة بشكل رائع، وتتدلى فوقهن العقود الفضية والتحف الصغيرة تغطيها أحبال من

الأضواء. طريق جميل من المطار إلى حيثُ سأعيش، ولكن كيف ستكون حياتي في هذه البلد؟ لم أستطع أن أحصل على القليل من البهجة، لا شيء حتى الآن يشير لذلك، يكفي عدم استقبال خالد لي، لم أستطع رسم صورة للآتي، كل شيء غريب، مجهول، وصامت كصمت العمّ أحمد طوال الطريق.

وصلنا إلى عمارة العمّ أحمد، وقد أخبرني أن شقتي (شقة خالد) بنفس العمارة، وكانتْ العمارة عبارة عن وحدة سكنية من طابقين عريضين، كل طابق يحتوي على عدد من الشقق المتقاربة، وأمامها شرفة ممتدة وهي الممر إلى الدرج الحديدي المتواجد على جانبي الممر الطويل والذي يقود إمّا إلى الشارع هبوطا أو إلى الطابق الأعلى صعوداً، بينما توجد مجموعة من المحلات المتنوعة في الطابق الأرضي أسفل العمارة، ولم يصعُب عليّ معرفة أن العمارة لمحدودي الدخل. وبمجرد وصولنا نزلتْ امرأة جميلة بيضاء البشرة خفيفة الحركة متوسطة الطول، تبدو وكأنها في الخامسة والثلاثين من عمرها، رحبتْ بي بشكل ودود وبلهجة شامية بينما العمّ أحمد يعرفني عليها أنها زوجته (أميمة)، كانتْ ترتدي الحجاب وملابس بسيطة أنيقة، وكانتْ أميمة هي زوجة العمّ أحمد الثانية سورية الأصل؛ وأصبحتْ صديقة ورفيقة حياتي في أمريكا؛ كانتْ أول من رحب بي أو بتعبير أدق الوحيدة التي رحبتْ بي في هذه البلد.

صعدنا معاً أنا وأميمة لشقة خالد أو شقتي كما قالتْ أميمة، وكانتْ شقة صغيرة أثاثها بسيط مكونة من صالة جلوس صغيرة تحتوي على أريكة وثلاثة كراسي وتلفاز صغير، ويحتل المطبخ الصغير جزءاً من هذه الصالة ولا يوجد جدار يحجبه عنها؛ وعلى جانب الصالة بابان متقاربان أحدهما للحمام والآخر لغرفة النوم، وكانتْ هذه هي شقتي الجديدة، وكانتْ مشبّعة برائحة دخان السجائر، ولكني قررتُ أن أحبها. ساعدتني أميمة على الاستقرار؛ وبمجرد أن ترتبتْ الأمور تركتني أخلُد للراحة، وأخبرتني أن تناول الغداء سيكون في ضيافتها في الساعة السادسة مساءً؛ فأنا عروس جديد، وابتسمتْ لي ابتسامة صافية جميلة وودودة.

تجولتُ داخل الشقة أتابع كل ما حولي، وقد تغلغلتْ الكآبة أعماقي وشعرتُ بوحشة المكان وبوحدة رهيبة وحزن وشوق وشجن لأهلي، قضيتُ الساعات الأولى في أول يوم لي وحيدة تماماً، وتذكرتُ زوج شيماء عندما قدِم إلى القاهرة لمرافقة عروسه إلى كندا، بينما أنا لم أحظ حتى باستقبال في المطار، هل أنا فعلا عروسٌ جديدة كما قالتْ أميمة! أم أن مرور سنوات منذ عرسي لم يجعلني أعُد كذلك؟ هل أنا على عتبة حياة جديدة؟ وكيف ستكون إذا كانتْ هذه الوحدة الموحشة هي عتبتها الأولى؟! هل غربتي مؤقتة أم أن هذا هو الطريق المكتوب عليّ؟ مرّ اليوم سريعاً أو هكذا بدا لي، واستغربتُ لقدوم الليل عند الخامسة، بينما ماتزال الشمس في بلادنا هذا الوقت ساطعة. جلستُ على الأريكة أمام النافذة أراقب هطول الثلج؛ انبهرتُ به؛ كان يغطي

كل المنظر أمامي؛ ويلمع عند انعكاسات أضواء الشارع الخافتة، منظر جميل، بديع ومهيب. انتقلتُ بكل كياني إلى بلادي، وعادتْ ملامح أهلي تمر من أمام عينيّ، أسمع ضجيج آتٍ من خلف جدران شقتي، وأصوات أطفال لا يرغبون بالنوم المبكر، وأسمع نحيب أمي يأتي من بعيد وسط هذه الضجيج، فأشاركها دموعها، وحيدة أنا كما لم أكن من قبل.

صعدتْ أميمة لمرافقتي إلى شقتها، فكسيتُ ملامحي بملامح العروس الجديد؛ وأخبرتُها عن تأملاتي؛ وضحكتْ عندما أخبرتُها باستغرابي لقدوم الليل في الخامسة ونحن نتناول الطعام؛ فقالتْ لي أن عليّ الانتظار للصيف حيث تغيب الشمس قرابة العاشرة بينما يكون هذا الوقت في بلادنا ليلاً دامساً. تناولنا طعام العشاء وتبادلنا حديثاً عاماً، وشعرتُ أن العمّ أحمد يبدو صارم الملامح، ولكنّه طيب القلب.

خلال هذا الأسبوع تعارفنا أنا وأميمة أكثر، وعرّفتني على ابنها باسل وأخبرتني أنه سيكمل الخامسة من عمره في يناير القادم، كان طفلاً جميل الوجه أخذ من أمه بياض البشرة وجمال العيون واتساعها، طويل القامة مقارنة بعمره وهذه صفة من أبيه لأن العمّ أحمد كان متميزا بطول القامة وكذلك كان خالد.

*****

قصّتْ لي أميمة قصتها في أول جلسة ودية بيننا وأخبرتني أنها من حلب، عاشتْ وسط عائلة محبة، أبيها وأمها واثنين من الأشقاء وشقيقة، رغم شراسة الحرب ورغم هدير الطائرات فوق رؤوسهم، لم يتركوا الوطن واعتقدوا أنه سيبادلهم الحب ويقدر لهم بقاءهم معه. ولكن للحرب رأي آخر، ففي يوم من أيام الحرب التي لا تحمل إلا الدمار، جاء نصيبهم في ليل أسود، انهارت العمارة فوق رؤوسهم، سقط الصاروخ على العمارات المجاورة وأعطى عمارتهم نصيبها من الدمار، وكان كافياً لسحب الحياة من أرواح أهلها، تاركاً لها نبضاً قليلاً ومشواراً حزيناً تسير فيه وحيدة، تم انقاذها بينما رحل أبواها وأشقاؤها وشقيقتها. مرّت عليها أيامٌ صعبة، حال الدمار دون وصولها لأيٍ من أهلها وأقاربها، ولكنها عثرتْ على ديما صديقة شقيقتها الكبرى، وكانتْ تعرفها منذ أن كُنَّ أطفال، فقدتْ ديما أهلها أيضا في الحرب الشرسة، اعتبرتْ ديما نفسها شقيقة كبرى لأميمة، واهتمتْ بها كثيراً وعاشتا معا قرابة العامين. بعد فترة وجدتْ ديما طريقة لتسجيل أسمائهما في لجنة شؤون اللاجئين، ومر وقت حتى تم الموافقة على طلبهن وترحيلهن إلى أمريكا، ثمّ تم تسكينهن مع ثلاث فتيات أخريات في إحدى شقق هذه العمارة، شقة تحمل اسم الرقم 5، والتي كانتْ مخصصة لإيواء الفتيات اللاجئات اللاتي أُرسلن إلى أمريكا بمفردهن دون عائلات، وبمجرد أن تحصل إحداهن على عمل تترك الشقة، وقد تأتي لاجئة جديدة مكانها وهكذا.

استمعتُ لحكايتها وشردتُ أتخيّل كم من هذه الحكايات سوف تُسرد في بلادي، وكم ستحصد الحرب من أرواح؟ وكم من أطفال سوف يتيتمون وزوجات سيترملنْ، وفتيات ستلقي بهن الحرب إلى الشتات وكم من المآسي سوف يسجلها التاريخ ويضع لها لقب مُلطَف "شهداء الحرب".

تأملتني أميمة ثمّ قالتْ باسمة "لا شك أنكِ تتساءلين كيف وصلتُ لأحمد؟ "

عُدتُ من شرودي ونظرتُ إليها أشجعها على الحديث، فعادتْ تُكمل قصتها وعلاقتها بالعمّ أحمد، وعرفتُ أنه كان يسكن بالطابق الأعلى مع زوجته التي كانتْ شفيقة عليها وعلى ديما رحيمة بهما، اتخذتهما ابنتين لها. تزوجتْ ديما بشاب سوري تعرفتْ عليه، وانتقلتْ إلى بيت آخر، وبقيتْ هي في الشقة 5 التي تعيش بها البنات؛ ومن تجد منهن عملاً تغادر تلك الشقة وتأتي غيرها ممن تُلقي بها الظروف، وأميمة عالقة بها لم تجد عملاً بسهولة.

ضحكتْ أميمة وهي تسترجع قصتها:

- ديما كأنها شقيقتي، عندما تزوجتْ ظلتْ علاقتي بها قوية، وقد فتحتْ في شقتها مكاناً متواضعاً للتجميل، زبائنها قليل وأغلبهن سوريات من نفس الحي، تحاول أن تساعد زوجها وخاصة بعد أن رُزقتْ بولدين توأم (زيد وزياد)؛ هما الآن في الثامنة من عمرهما؛ لديّهما - مع الأسف - صعوبة حركية؛ لذا يذهبان إلى مدرسة خاصة بذوي الاحتياجات الخاصة- الحمد لله- أنهما سليما العقل. ظروفها صعبة، ولكنها لا تزال تناضل، وسعيدة بما هي عليه.

صمتتْ قليلاً، ثمّ قالتْ لي مستفهمة:

- هل تعتقدين أنهما تأثرا بما تشبعتْ به أجسامنا من غازات وعوادم الانفجارات أثناء وجودنا في سوريا؟
- ربما لا أدري، ولكن ربما.
- لقد لاحظتُ أن لدى الكثير من أبناء الأسر السورية مشاكل متنوعة تعيق حياتهم الطبيعية.

سألتُها أحثُها على إكمال قصتها:

- وهل وجدتِ بعدهاً عملاً؟

قالتْ:

- نعم؛ أخيراً وجدتُ عملاً في مصبغة بالحارة؛ وحصلتُ على غرفة استأجرتها في بدروم أحد البيوت مُشارَكة مع ثلاث فتيات أخريات، واستمريتُ بزيارة زوجة أحمد كلما تمكنتُ من ذلك.

شردتْ بنظرها قليلاً، واحترمتُ لمحة الحزن الذي كسى وجهها وانتظرتُ، إلى أن عادتْ تقصّ قصتها:

- كان هناك شاب يتقرب مني، ولكني كنتُ أخاف، شيءٌ ما كان يُفزعني من موضوع الارتباط، كنتُ أصده دائما إلى أن اقتنع وانقطع عن محاولة التقرُّب مني. وعندما مرضتْ زوجة أحمد فجأة ودون سابق إنذار، ذهبتُ لمعاونتها والاهتمام بها كلما سمح لي وقت العمل، ولكنها رحلتْ سريعاً حتى قبل أن يتمكن أولادها الاثنان اللذان كانا يعيشان في ولاية بعيدة من توديعها.

- هل لدى العمّ أحمد أبناء هنا؟

- لقد عادا إلى اليمن قبل أربع سنوات.

أكملتْ قصتها قائلة:

- انقطعتُ عن منزل أحمد؛ وما هي إلا شهران حتى تقدّم لي، كنتُ أعلم أنه أكبر مني بكثير، ولكني كنتُ قد اعتدتُ عليه، قبلتُ وأصبحتُ زوجته، ربما بررتُ لنفسي أن هذا رد جميل لزوجته الراحلة، ربما كنتُ أعلم بقرارة نفسي أني محتاجة لحماية؛ وقد لا أحصل على نصيب أفضل منه.

احتضنتْ ابنها وأكملتْ:

- وها أنا سعيدة بباسل، وأعيش من أجله وهو أجمل ما تمنيتُه وأغلى ما حصلتُ عليه في هذه الحياة. أعمل الآن في مقهى؛ أصنع الحلويات الحلبية هنا في البيت، وأذهب لبيعها ومساعدة صاحبة المقهى، ويبقى باسل عند عودته من روضة الأطفال في رعاية جارتي العراقية بمقابل.

*****

خلال هذا الأسبوع -وقبل أن يعود خالد - كنتُ أخرج مع أميمة، مرتدية عباءتي السوداء الخالية من أي نقوش أو زينة وفوقها معطف الشتاء مع حجابي الصافي أو الملون، كانتْ النساء في الحي يرتدين ملابس مختلفة، منهُن من ترتدي الثياب المحتشمة مع حجاب أو دون حجاب، ومنهُن من ترتدي ملابس حديثة، وهناك الكثير خاصة من الهنديات والباكستانيات يرتدين أزياءهن الشعبية، لم أجد في حيناً ما من ترتدي عباءة أو نقاب، رغم تأكيد أميمة أنهن موجودات.

تعرفتُ مع أميمة على الحي وما يحيط بعمارتنا، وتعرفتُ على الدكاكين في الطابق الأرضي للعمارة؛ أغلبها بملكية مهاجرين من أصول متنوعة. كان الحي صغيراً يحتوي على بيوت متلاصقة ذات طابقين، أخبرتني أميمة أن كل بيت مقسوم طولياً، تحصل كل أسرة على طابقين ضيقين، كما كان هناك عمارات صغيرة ذات خمسة أو ستة طوابق.

سرنا معاً في الحارة أمام دكاكين الطابق الأرضي من عمارتنا الذي يحتوي على مخازن وثلاثة دكاكين، إحداهن هي بقالة العمّ أحمد، وكانتْ ضيقة مكدسة بالكثير من الرفوف وتحتوي على المعلبات والأخباز والخضروات، ولديّه ثلاجة صغيرة تحتوي على المثلجات والمشروبات الغازية، كما كان يبيع بعضاً من المنتجات اليمنية مثل بسكوت أبو ولد، وشاي الكبوس.

لم يعُد العمّ. أحمد أو شريكه يبقون كثيراً في المحل؛ فأغلب الوقت ينوب عنهما شابٌ يمني صغير السن يقوم بالعمل، لا يرفع رأسه عن هاتفه إلا عندما يطرق الزبون على الطاولة لدفع حساب ما اشتراه، ولا أعلم إذا كان يمكن سرقة أشياء من المحل وهو غارق في هاتفه! وأخبرتني أميمة أنه أنهى المدرسة، ولم يقرر بعد هل عليه دخول أحد الكليات وتأهيل نفسه أم العمل في بقالة العم أحمد بشكل دائم.

والدكان الآخر كان مطعماً هندياً، يُقدِم الحلويات والمأكولات الهندية - تلك التي يحتوي نصفها على البهارات-، كافة جدران المطعم مزينّة بعقود الورد المجففة ذات الألوان المتعددة، وصور لفنانين وفنانات هنود يأكلون الطعام الهندي، وصورة أكبر للأكلات التي يقدمها المطعم. للمطعم طاولتان فقط للزبائن؛ فأكثر الزبائن يطلبون الطعام للمنزل. كان صاحب المطعم رجلاً أرملاً كبيراً بالعمر؛ أمريكي من أصل هندي؛ يلبس ملابسه التقليدية الهندية والكثير من الخواتم على أصابع يديه الاثنتين، وكان هو الطباخ ومعه مساعد شاب هندي، يقوم بتحضير وتقديم الطعام وكذلك التنظيف، وكان ابنه الشاب يعاونه في أوقات فراغه حيث كان طالباً يدرس الطب كما أخبرتني أميمة. وغالباً ما كان صاحب المطعم يقضي وقته خلال فترة الصباح الخاملة من الزبائن على كرسي أمام المحل مع صديقه -في مثل عمره- يتبادلان الحديث بلغتهم ويجترّان معاً ذكريات عمر مضى.

أمّا الدكان الأخير فكان لرجلٍ مصري ينتظر اكتمال معاملته للحصول على الجنسية الأمريكية، طويل القامة ممتلئ الجسم، قد يكون في الأربعين من عمره، له وجهٌ ضاحكٌ؛ يُرحب بالقادمين إليه بصوت عالٍ، ويرمي النُكت على كل شيء (البلد، الجو، الزبائن وحتى على نفسه)، يتكلم تارة بالإنجليزية وتارة بالعربية بلهجته المصرية المحببة. يبيع كل ما يحتاجه المطبخ من أطباق وأواني الطبخ وأطقم الشاي والقهوة، ويبيع أيضا بعض التحف الفرعونية، وفي ركن صغير من دكانه كان لديّه طاولة يضع عليها بعض الكتب وأغلبها روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس؛ ولم يكن يبِع هذه الكتب، ولكنه يعيرها فقط بمبلغ زهيد، ولديّه دفتر صغير يسجل فيه اسم الشخص المستعير ورقم هاتفه وتاريخ إرجاعه للكتب.

قصّت عليّ أميمة من قصص الحي الذي نسكن فيه وعن شقق العمارة؛ وسردتْ بعض من أخبارهم، وحدثتني أن حيّنا يُعتبر من الأحياء الشعبية المكدسة بالبشر؛ أغلبهم مهاجرون من

ذوي الدخل المحدود، وبعضهم مقيمون في أمريكا من سنوات كثيرة جداً، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا الأعمال المناسبة التي ترفع من مستوى معيشتهم، ربما لأن أغلبهم غير مؤهلين ولم يحرصوا على تأهيل أنفسهم بما يحتاجه الوطن الجديد. وحدثتني عن سكان الطابقين في عمارتنا، وقالتْ لي أن بعض الشقق تُسكن من قبل عائلات حديثة الوصول إلى أمريكا، فيبقون فيها فترة قد تصل إلى ستة أشهر؛ يتلقون دعماً من الحكومة فيدفعون إيجارات رمزية؛ وبعد المدة المحددة إمّا أن ينتقلوا إلى أماكن أخرى أو يدفعوا الإيجار المعتاد ويبقون فيها، وهناك أسر تسكن منذ سنوات في هذه الشقق.

أكملتْ لي أميمة قائلة:

- في الطابق الأول تسكن أسرة من الأسر المستقرة من عدة سنوات فتمكنتُ من التعرُّف عليها، وهي أسرة عراقية الأصل؛ عندما أذهب للعمل أترك باسل عندهم. هاجرتْ الأسرة منذ 10 سنوات كما قالتْ لي الأم، تركوا العراق في فترة الحرب ولجأوا إلى الأردن، عاشوا هناك فترة وقدموا حينها للهجرة وحصلوا عليها بعد سنوات قضوها في الأردن. الأسرة مكوّنة من الأم التي تعمل في تصفيف الشعر في بيتها وبطريقة غير قانونية حيث لم تسجل نشاطها رسمياً، أما الأب فهو عامل في سوبر ماركت كبير. لديّهم ثلاثة أولاد وبنتين هما الأصغر، كل الأولاد الآن في الكليات، ولأن الشقة تحتوي فقط على حجرتين؛ يحتل الأبوان حجرة وتحتل الفتيات الحجرة الأخرى بينما ينام الشباب في صالة الجلوس، ومؤخراً انتقل الشابان الأكبر سنناً للسكن في غرفة قُرب الجامعة؛ لأن بقاءهم في الشقة أصبح صعباً. تحلُم الأم أن يكملوا تعليمهم، ويحصلوا على عمل حتى يتمكنوا من استئجار شقة أوسع وفي حيٍ أفضل، ويمكن لها حينها أن تتوقف عن تصفيف الشعر الذي أصبح يتعبها كثيراً.

صمتتْ قليلاً تسترجع معلوماتها ثمّ أكملتْ:

- أمّا سكان الشقة الثانية فهم أسرة باكستانية، هاجرتْ إلى أمريكا منذ زمن، يعمل الأب محاسباً في مكتب للسفريات، بينما تبقى الأم في البيت، وأحياناً تهتم بالأطفال الذين تذهب أمهاتهم للعمل كما هو الحال هذه الأيام، ترعى ثلاثة أطفال ما بين الرابعة والخامسة - ولا أعتقد أن هذا مسموح- ، ولكن لا أحد يهتم. لديّها ثلاث فتيات، تزوجتْ إحداهن شاباً أمريكياً دون موافقة أهلها ورحلتْ، وتعمل الفتاتان الأخريان في مدرسة باكستانية، ويساعدان في مصاريف البيت، تحلم الصغرى أن تصبح ممثلة وهذا ما يسبب شجار حاد بينها وبين أهلها يصلنا منه الكثير خاصة ما يخص الفتاة فهي تصرخ باللغة الإنجليزية وتبادلها الأم باللغة الباكستانية، وكما فهمتْ أنها قد لعبت دوراً بسيطاً بأحد الأفلام الرخيصة وهذا ما شجّعها على السعي لتحقيق هذا الحلم. وقد شكتْ لي الأم أيضاً - عندما التقينا في الحديقة الخلفية للعمارة- أن مبلغاً لا بأس به من راتب زوجها يذهب لمساعدة

أخوات الأب اللاتي يعِشْنَ في الباكستان ولم يعُدْنَ قادرات على العمل، ولكن الأب لا يملك إلا أن يساعد شقيقاته، "غادرنا الباكستان لتحسين حياتنا ولكننا ما زلنا نعاني الكثير" شكتْ المرأة الباكستانية لي.

ويجاور شقتكِ الشقة التي تسكن فيها عائلة من المكسيك، وهي مكونة من الأب والأم وكلاهما يعملان، ولديّهم ثلاثة أولاد ما زالوا في صفوف المدرسة. لم أتعرّفُ عليهم جيداً، لأنهما دائماً مشغولون، ولكنهما لطيفان.

وهناك شقة نطلق عليها الشقة رقم 5 - التي حدثتكِ عنها سابقا-، وهي مخصصة لتسكين اللاجئات اللاتي ترسلهن منظمة شؤون اللاجئين إلى أمريكا؛ وهن اللاتي يأتيْنَ وحدهن دون عائلات، ويبقيْنَ في الشقة حتى يحصلْنَ على عمل ويتمكنَّ من إعالة أنفسهن ثم يتركْنَ الشقة ويغادرْنَ إلى شقق أخرى غالباً ما تكون في الحي نفسه، وكانتْ هذه الشقة هي نفسها التي سكنتُ بها أنا وديما عندما وصلنا.

أمّا الشقة الأقرب لدرج العمارة فتسكن فيها امرأة وحيدة من أصل أفريقي لا أعلم من أين بالتحديد، وهي امرأة كبيرة بالعمر تمشي بالعكاز ذي الأرجل الثلاثة، أحضرَها أولادها إلى هنا قبل فترة قصيرة، وتمرُ عليها ابنتها بين الحين والآخر لجلب بعضاً من المأكولات والمستلزمات التي تحتاجها العجوز، حركتها بطيئة ولم أشاهدها خارج العمارة مطلقاً، أحياناً تجلس في الممر على كرسيها المتحرك تطالع منه الشارع، وتتبادل الأحاديث مع سكان العمارة المارين من أمامها. وقد أخبرتني ابنتها أنها جاءت إلى أمريكا عندما كانت شابة في العشرين من عمرها، اشتغلتْ أشغال متنوعة، وتزوجتْ وانجبتْ ثلاثة أولاد وهذه الابنة، وعندما كبرتْ لم يستطع أولادها المشغولون في حياتهم تسكينها معهم؛ فأحضروها إلى هنا ويتفقدونها بين الحين والآخر، وتحصل على مساعدة من الحكومة.

أمّا الطابق الثاني فكما تعلمين نسكن نحن في إحدى الشقق، ويجاورنا صاحب المطعم الهندي، وهي نفس الشقة التي سكن فيها هو وزوجته وأولاده الثلاثة، وقد توفيتْ زوجته بحادث سيارة قبل سنوات قليلة، ورحل أولاده الذين بدأوا بالعمل في أماكن جيدة إلى أحياء أفضل من هذا الحي، ولكنه رفض مغادرة الشقة التي عاش فيها سنوات كثيرة منذ انتقل إلى هذه المدينة.

وتجاور شقة الطباخ الهندي، شقة لأسرة هاجرتْ من كوريا، وهي مكونة من الأب والأم وابن واحد يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وهذه الأسرة رغم وجودهم بالشقة منذ سنوات إلا أنهم منغلقون على أنفسهم، حتى أنهم أحياناً لا يردون على أي سؤال من أي أحد من السكان،

ويردون على التحية بصوتٍ خافت غير مسموع، ولا أعرف ماذا يعمل الزوجان، ولكنهما يخرجان مبكرين ويعودان بعد الخامسة.

ضحكتْ أميمة وقالتْ:

- لقد أزعجتُكِ بكل هذه الأخبار التي لا تعنيكِ، ولكني أحببتُ أن أعطيكِ فكرة عن المجتمع الذي ستعيشين فيه.

فقلتُ لها:

- على العكس؛ من الجيد أن أعرف المحيط الذي سأعيش فيه، كما أن تجارب البشر بدأتْ تثير اهتمامي. وهل يسكن العم أحمد في هذه العمارة منذ أن قدِم إلى أمريكا؟

- لا بالطبع، لقد أخبرتني زوجته -عندما تعرفتُ عليها- أنهم جاءوا إلى أمريكا عندما كان الولدان في العاشرة والحادي عشر من العمر، وسكنا في ولاية لم تعُد تذكر اسمها، اشتغل أحمد في بقالة ليمنيين عدة سنوات، ثم انتقل إلى عمل في مخزن كبير يتم فيه تحميل البضائع وتوزيعها إلى المحلات المختلفة، وعمل فيه أيضا لسنوات، وعندما كبر الابنان عملا معه. ولمّا توفر له بعض المال، جاء إلى ميتشغان وقرر فتح هذه البقالة مع صديق له، وبقي الولدان هناك، أحدهما استمر في عمل المخزن، والثاني يعمل كسائق أجرة، ومنذ فترة قرر الابنان العودة إلى اليمن، من المؤسف أن توقيتهم للعودة جاء مع اندلاع الحرب.

*****.

قضيتُ الوقت في انتظار عودة خالد في ترتيب الشقة وتنظيفها، كانتْ معدات المطبخ قليلة وقديمة، وكلها داخل المغسلة مع بقايا طعام لا أدري منذ متى، ولكني نظفتُها ورتبتُها على الدرج المخصص لها، وتبضعتُ الاحتياجات الأساسية من المال الذي أعطاني أبي. كما جلب لي العمّ أحمد رقم أمريكي وطلب مني التواصل مع أهلي؛ لأن أبي أتصل به يريد الاطمئنان عليّ؛ فتواصلتُ مع أبي وأمي وطمأنتهما أن أموري جيدة؛ وأني أنتظر خالد وأني سأتواصل معهما دائما. كنتُ قد أعتدتُ على الوحدة والفراغ منذ السنوات الأخيرة لي في اليمن، ولكن هيهات، لم تكن وحدة وأنا قادرة أن أنضم لأمي وأبي وقت ما أشاء، أو أجالس أخي وزوجته، أو أقضي وقتاً ألاعب أولاد أخي، لم تكن وحدة كما كنتُ أشعر، الوحدة هي ما أعيشه الآن وأنا أمضي يوماً كاملاً أو أكثر لا أتفوه بكلمة واحدة، ولا أسمع تنفس أحد بجانبي، الباب موصد، والكل غافل عني بمتطلبات حياته ويومه، أسمع إيقاع الحياة من خلف الجدران، بشر لا أعرفهم، ولا يعرفونني، أشعر كأنهم أشباح دون ملامح.

كان المنظر من نافذة غرفة الجلوس يطلُ على الحديقة الخلفية المخصصة لأطفال عمارتنا والعمارة المقابلة لنا، تتنزه فيها الأمهات مع الأطفال الصغار في عرباتهم صباحاً، كما يُنزه أصحاب الكلاب كلابهم، وعند المساء يحتلها الأطفال الأكبر سناً للعب بعد عودتهم من مدارسهم. لم تكن شقتي هادئة رغم وجودي لوحدي بها، حيث كان يمكن لي أحياناً سماع مشاجرات الجيران وأحياناً أخرى صراخ الأطفال، وحتى نباح الكلاب داخل الشقق المغلقة، وتصلني كذلك أغاني عراقية وهندية، لم يكن الهدوء النسبي يسود الشقة إلا خلال الفترة الصباحية، ولكن بمجرد عودة الأبناء من مدارسهم والأزواج من أعمالهم، يعود خليط الضجيج من كل نوع. ليستْ الأصوات فقط من كانتْ تشاركني الشقة، ولكن أيضا روائح المطعم الهندي أسفل العمارة وكذلك روائح مطابخ الجيران، شعرتُ أني أعيش في شقة مصنوعة من الكرتون، ولكني بالنهاية بدأتُ أستأنس بهم، وأشعر أن هناك حياة حولي.

كنتُ أفكر كثيراً بكلام شيماء حول تخصصي الجيد والمطلوب، والذي سيمكنني من تأهيل نفسي بشهادة أمريكية ثمّ الحصول على عمل؛ وبذلك استمر بالعمل في المجال الذي يملأني حباً وشغفاً. هل من الممكن أن أعود للعمل وأعود للتميز وأبني حلمي هنا في أمريكا على مستوى عالٍ؟ هل بإمكاني تجاوز فترة الركود في حياتي؟ هل الأوان لم يفُت بعد، وما زال الأمل موجوداً؟ سوف أجد الجواب عندما يعود خالد، أنه- مع الأسف- من سيشكل لي حياتي هنا!!

وجاء عيد ميلاد باسل الخامس والذي يصادف الثالث من يناير، فأعدّتْ له أميمة حفلاً صغيراً في منزلها ضم بعض الأصدقاء ومنهم صديقتها ديما وأبنائها التوأم زيد وزياد. تعرفتُ على ديما وكانت امرأة لطيفة حنونة ومثابرة، أحبّتْ أميمة كثيراً وأحبّتْ ابنها باسل وأحبّتْ اسمي الذي أطلقه عليّ "صافي"، ولم تفلح أمه بتدريبه على مناداتي باللقب "خالة".

*****

وأخيراً عاد خالد، وكان متعباً ومرهقاً، رحبّ بي ودخل حجرته لينام، وعندما نهض كان أفضل حالاً، جهزتُ له طعاماً وجلسنا نتحدث، قصصتُ عليه رحلتي، وقص عليّ رحلة عمله؛ ومرّ اليوم مختلفا هادئا. أخبرتُه أن أدوات المطبخ لا تكفي لكلينا، ولم أذكر له أنها قديمة جداً؛ فأخرج قليلاً من النقود وقال لي: يُمكِنُك النزول إلى دكان المصري لشراء ما تحتاجينه من أدوات المطبخ.

في يومنا الثاني وبينما نحن نتناول طعام الفطور؛ قال لي موضحاً لي شكل حياتي الآتية:

- لا فرق بين صنعاء وميتشغان؛ نفس تعليماتي ستُطبق هنا، أريدكِ أن تهتمي بالبيت والبيت فقط. وإذا خرجتِ فالبسي عبايتكِ فالحي أغلبه عرب -لا داعي لما ليس له داعي.

تفاجأتُ من كلامه رغم أني توقعتُ شيئا كهذا منه، ولكن ليس إلى هذه الدرجة، فقلتُ:

- ولكني كنتُ أفكر أن ألتحق بأي دورة تُأهلني للعمل.

وكأنّي قلتُ تأهلني للقتل، ففزع وصرخ بيّ بحدة:

- ماذا؟ عمل؟ وهل تعتقدين أنكِ في صنعاء؟ (كأني عملتُ في صنعاء بعد زواجي) ولماذا العمل؟ هل وجدتِ حياتي بائسة تستحق مساعدتكِ لتحسينها؟

صمتَ وهو ينتفض من الغضب؛ ثم غمغم "إنها أميمة"، ثم نظر إليّ وقال:

- لا أريدكِ أن تتعاملي مع أميمة، إنها ليست يمنية.

كانتْ هذه أول مشاجرة بيننا، حزنتُ أن تحدث بهذه السرعة؛ ولم أعرف من المخطئ منا. دخل خالد حجرته وهو يفتح علبة سجائره، وبقيتُ في مكاني أراجع الشروط والتعليمات، ولكن عبارة " لا أريدكِ أن تتعاملي مع أميمة، إنها ليست يمنية" أفزعتني أكثر من رفضه للعمل، ماذا يعني أنها ليست يمنية! وكأنّه يقول إنها ليست إنسانة أو إنها وحش. إني أعتبرها هبة الله ليّ، كيف يمكن لي ألا أتعامل معها، إنها البسمة الوحيدة التي صادفتُها منذ أن دخلتُ هذه البلد.

كان العمّ أحمد هو المنقذ، ذهبنا لتناول طعام الغداء في الساعة الرابعة في منزله بمناسبة عودة خالد، وحضور شبه احتفال أقامته لنا أميمة باعتبارنا زوجين جديدين من وجهة نظرها. وعندما أنهينا الطعام وجلسنا لشرب الشاي؛ قال العمّ أحمد:

- لقد أعطيتُ صفية رقم أمريكي؛ لأني وعدتُ والدها أن تتواصل معهم كلما رغبتْ بذلك.

تفاجأ خالد ولكنه لم يعترض ووافق بهز رأسه. فأكمل العمّ أحمد:

- ولقد رأيتُ أن صفية يمكن أن تساعد أميمة، فبينما تذهب أميمة للعمل في المقهى، يمكن لباسل أن يبقى معها عند عودته من المدرسة، أفضل من بقائه لدى جارتنا التي تأخذ كثيراً مما تكسبه أميمة، اتفقنا يا خالد؟

صمتَ خالد لفترة ثمّ رد:

- تمام إن شاء الله، اتفقنا.

وهكذا تم انقاذي من تعليمات خالد المجحفة، والتي كانتْ ستصل إلى حد حرماني من التواصل مع أميمة ومن امتلاك هاتف. كان هاتفي نافذتي على العالم؛ ووسيلتي الوحيدة للتواصل مع

أمي وأبي وسمر وشيماء، كان صديقاً أكثر من كونه جهاز. ُسعدت كثيراً بالعمّ أحمد وحكمه النافذ على خالد، فاستمرتْ علاقتي بأميمة وتطورتْ أكثر وأكثر؛ فصرنا صديقات مقربات؛ وإن كانتْ. تلعب معي أحيانا دور الأم رغم أنها تكبرني بسنوات قليلة فقط. وبنفس الوقت تأكدتُ أن فرصة العمل لم تعُد ممكنة منذ أن تزوجتْ خالد، فلم يسمح لي بمواصلة عملي وأنا في بلادي وبين أهلي، فكيف سيسمح لي بالعمل هنا!

أصبحتْ أميمة صديقة عزيزة جداً، ارتحتُ لها وارتاحتْ لي؛ وقد حكتْ لي كثيراً عن مدينتها حلب وعن جمالها وأشجارها وبساتينها وناسها، وحكتْ لي عن أسرتها، أمها وأبيها وأشقائها وشقيقتها، وعن حياتهم السعيدة قبل الحرب، ثمّ كيف تدمرتْ تلك السعادة أثناء الحرب كما تدمرتْ حلب.

وحكيتُ لها بدوري عن مدينتي صنعاء تلك القابعة فوق الجبال والمحاطة أيضاً بها، وحكيتُ لها عن أسرتي وعن سمر وشيماء؛ وأخبرتها كيف شوهتْ الحرب وجه مدينتي ومزقتْ نسيجها وبعثرتْ أبناءها. وأبدتْ أميمة رغبتها بزيارة اليمن بلد ابنها، وأخذي ذات يوم في رحلة إلى حلب تُعرّفني على جمالها، وكل هذه الأماني عندما تنتهي الحروب.

وذات يوم وفي إحدى جلساتنا قالتْ لي:

- هل أعترف لكِ بسر لا يعلمه أحد؟
- بالتأكيد؛ فقد صِرنا بمثابة الأخوات.
- عندما كنتُ في الثامنة عشر من عمري، تقدم شاب لخطبتي، وافقتُ وكنتُ استعد للزواج، أحببتُه كثيراً وعشنا قصة حب جميلة.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- ذهب للمشاركة في المعارك الدائرة بيننا نحن أهل البلد الواحد، ذهب وهو يعِدُني بالعودة وإكمال الزواج، لم يفِ بوعده، لم يعُدْ، استشهد خطيبي في الحرب، بكيتُ عليه كثيراً حتى جفَّ دمعي، وظل قلبي متعلقاً بذكراه، عازفاً عن الالتفات لأي شابٍ آخر.

صمتتْ قليلاً، ونكستْ رأسها؛ ومسحتْ دمعة فرّتْ من عينيها؛ ثم عادتْ ونظرتْ إليّ وسألتْ:

- وأنتِ هل أحببتِ شاباً قبل زواجكِ؟
- أحببتُ عملي كثيراً، لقد كنتُ شغوفة به، وجدتني أعيش مع كل موقع كنتُ أصممه، وأحاول أن أعطيه أقصى ما يمكن من إبداع، وابتكر له كثيراً من الأساليب التي تجعله متميزاً ومفيداً، كان حلمي أن أصبح اسماً مرموقاً مشهوراً في عالم تصميم المواقع، كنتُ أسير بخطوات واثقة في هذه الطريق، ولكني تعثرتُ، سقطتُ، وانكسر حلمي وتركتُ كل شيء.

- ولكن ماذا عن الحب؟

سرحتُ إلى بعيد، وعُدتُ بذاكرتي إلى حيث كنتُ أعمل، تراءى لي مكتبي وجهاز الحاسوب عليه وأنا منشغلة به عن العالم، وعادتْ لي ذكرى صغيرة بل لقطات عابرة!! فابتسمتُ وقلتُ:

- بما أننا في جلسة اعتراف، أعترف لكِ، لقد كان هناك زميلٌ يُظهر الاهتمام بي، يطلب لي الشاي عندما أنسى نفسي وأنا أعمل، يساعدني في عملي، ينبهني أن وقت الدوام انتهى، يشاركني فرحتي عندما أنجز شيئاً مبتكراً، ولكن قلبي لم يهتم به، كان قلبي كله ملكاً لعملي.

ابتسمتْ لي أميمة تلك الابتسامة الودودة الملازمة لوجهها أغلب الأوقات، وابتسمتُ بدوري متفاجئة أني ذكرتُ لها موقفاً لم أتأمله فعلياً من قبل، لم أُحدّثُ به أحد حتى سمر؛ استغربت أن قلب أميمة نقي وقريب إلى درجة جعلني أخاطبها كأني أخاطب نفسي، أعماق نفسي.

كانتْ الأيام تمر على منوال واحد، أهتم بأعمال البيت التي تنتهي من أول ساعة من ساعات الصباح، وانتظر باسل واستقبله عند مدخل العمارة، فيأتي بحافلة المدرسة ويبدأ فور وصوله بسرد ما عمله في يومه بلغته الطفولية، أُخرج وجبته المسائية من حقيبته، وأعطيها له يتناولها وقد يخلُد للنوم أو يلعب بألعابه. كانتْ أميمة تعود في أوقات غير محددة، فإذا جاءتْ مبكرة جلسنا نتبادل الأحاديث قبل أن تأخذ ابنها وتنصرف، وإذا جاءتْ متأخرة تتصل بي أحضر لها باسل بينما تكون مشغولة بإعداد وجبة الطعام.

*****

سألتني أمي في أحد مكالماتها فيما إذا قد استطعتُ أن أتكيف مع المجتمع هنا، استغربتُ من السؤال، أي مجتمع؟! فأنا هنا وحدي ومن حولي قليلٌ من البشر، ليس هنا مجتمع ولم أعرف المجتمع، هل أميمة المجتمع؟ أم سكان العمارة المجتمع؟ ربما أصحاب المحلات أسفل العمارة مجتمع؟ خليط من البشر ولكني كنتُ متفرجة لا اختلط بهم ولا أصادق نساءهم ولا أعرف عنهم شيئاً، أي مجتمع تسألُني أمي عنه؟ لقد هاجرتُ إلى هذه الشقة وليس إلى مجتمع.

كنتُ أحلم عند عودة خالد أن يأخذني في نزهات، رحلات تعبّر عمّا يُقال عليه "شهر العسل" ولكنه لم يكن محباً للخروج للمتنزهات، أو حتى الجلوس معي لنشاهد أفلام معاً، كان حديثه قليلاً، يسرد عليّ بعضاً من أخباره، ويسمع شارداً لبعض من أخباري أو حكاياتي عن اليمن. حاولتُ كثيراً أن أشجعه على الخروج لأحد المتنزهات نتنزه معاً أو نطوف في الحافلة أتعرُّف على المدينة، ولم أنجح إلا مرة وحيدة، خرجنا للمنتزه القريب وقضينا وقتاً هادئاً سُررتُ به؛ ولكنه لم يسمح لي بأخذ صورة لنا، ولم تتكرر تلك النزهة مرة أخرى. اقترحتُ عليه أن ندعو عمه وأميمة لتناول الطعام معنا فلم يتحمس، حاولتُ أن أكُوّن له جواً عائلياً، وسألتُه إذا ما كان

لأصدقائه زوجات يمكن أن أتعرّف عليهن ونؤسس صداقات عائلية، ولكنه كان يصُدُني بشكل قاطع، لم يكن يسمح لي أحياناً حتى بإكمال المقترح، لم يعطِني مساحة في حياته، لم نتبادل أحاديث تروي القلب، لم نخُط أحلاماً متشابهة كما كنتُ أتوقع أن ذلك ما يحدث في حياة زوجين، وبدأتُ أتساءل بيني وبين نفسي "لِمَ تزوجني خالد؟".

كنتُ أسأله عمّا يرغب أن أعدّ له من طعام، فيضحك ساخراً ويقول إنه غير معتاد على هذه الرفاهية، فهو يأكل ما هو موجود، وذات يوم أشعلتُ بخور وتزينتُ له، ولكن عندما حضر صرخ احتجاجاً على دخان البخور؛ لأنه سيجعل جرس إنذار الحريق يدق، وركض لفتح النافذة دون أن يُعير زينتي أدنى اهتمام. أدركتُ بمرور الوقت أنه متعب نفسياً، وأنه يعاني من قلق مُزمن لا مبرر له على الأقل في الوقت الحالي، يتعامل مع الحياة كأنها عدوته، يخشاها، يخيفه الفرح، وتفزعه الابتسامة. أدركتُ أنه يعاني في داخله من صراع لم أستطع أن أصل إليه لأخفف عنه. كان يردُ على مقترحاتي بعبارات غريبة، لا تمت للمقترح بصلة، عبارات تحمل مَراراً وقهراً، كنتُ قد فهمتُ من خلال ما قصّه عليّ أي طفولة عاشها وأي تنمر عانى منه في المدرسة كطفل يمني يتيم ووحيد في مجتمع أمريكي لا يفهمه ولا يدرك سبب وجوده فيه، فأعطيتُه العذر، ولكني لم أعطِ له العذر ألا يسمح لي- أنا زوجته- بالتقرُّب منه، وتخفيف الألم الدفين في أعماقه.

ومرتْ الشهور على هذا الحال، اعتدتُ حياتي خالية من البهجة، إلا من زيارات باسل وأمه أميمة، وانتهي الشتاء وجاء الربيع خجولاً سريعاً يتنقل بين البرد والحر فلم نعرف له هوية، ثمّ طلّ الصيف وتمدد معه الوقت وزاد ضجيج الأطفال في الحديقة الخلفية مع بدء الاجازة السنوية، وكنتُ أقضي الوقت أحياناً بمراقبتهم من النافذة ومتابعة لعبهم ومرحهم، وكانوا خليطاً وأجناساً من بقاع الأرض، من وجوههم ميّزتُ الأوربي، العربي، الأفريقي، الصيني، الهندي، فتيات وأولاد في أعمار صغيرة تجمعهم اللغة الإنجليزية واللهجة الأمريكية والوطن المشترك الذي لم يعرفوا غيره.

طلّ علينا رمضان، حمل لي كثيراً من الشجون وغرقتُ بسيل الذكريات؛ فتذكرتُ رمضان في صنعاء وسط الأهل والأصدقاء، رمضان هنا لا يشبه رمضان الذي أعرف، الكل يخرج كالمعتاد لعمله ومدرسته، ويطول اليوم فلا تغرب الشمس إلا عند اقتراب الساعة من التاسعة ليلاً، خالد أصبح عصبياً بسبب الانقطاع عن سجائره، واسيتُ نفسي وتهيئتُ للتجربة الجديدة، فعلى الأقل تبّدل روتين حياتي.

عرفتُ أن إفطار خالد في منزل العمّ أحمد كان أمراً معتاداً في رمضان، فكان ذلك أروع خبر، وقد حاول خالد أن يعتذر بحجة أنه صار متزوجاً، ولكن العمّ أحمد أصرّ وقال: أن رمضان يحب اللمة.

كنتُ قد تعرفتُ على العمّ أحمد أكثر، رجل حريص على أن يظهر خالياً من مشاعر الرحمة والرقة، ولكنه طيب، صادق، يقف وقفة رجل عندما يلزم ذلك، أشعرني أني بأمان وأنه سيمُد لي يد العون لو احتجتُ لذلك، وأن كل تلك الصرامة التي يظهرها هي فقط من العادات والتقاليد التي تُلبس الرجال وخاصة الكبار منهم لباس الصرامة، وتُحرّم عليهم إظهار الحب والرقة، وهكذا كان العمّ أحمد، لكن خالد لم يكن كذلك.

تعاونا أنا وأميمة في إعداد طعام الافطار، ورغم أنها كانتْ تتقن بعض الأكلات اليمنية إلا أني أخذتُ على عاتقي طباختها وخصوصاً تلك التي أجيدها وأحبها، فتنوعت مائدتنا خلال الشهر الفضيل ما بين المأكولات اليمنية مثل الشفوت والعصيد والفتوت والسلته وغيرها؛ وما بين المأكولات السورية وخاصة الحلبية كالمحاشي والكبة الحلبية والتبولة وغيرها من الأكلات التي أعرف بعضها ولا أعرف البعض الآخر، والتي حاولتُ أن أتعلم طرق طبخها. وكنا نتناول القليل من الحلويات مباشرة بعد الصلاة، ولم تكن لنا سهرات رمضانية فالكل عليه الاستيقاظ مبكراً، والافطار على أي حال ينتهي في وقتٍ متأخر، ولكني كنتُ ممتنة لفطورنا الجماعي باستثناء مرات معدودة كانتْ أميمة وأسرتها تذهب للإفطار في منزل ديما، وكنتُ أفطر مع خالد فطور صامت. ومرتْ أيام الشهر الكريم ما بين قراءة القرآن وفطورنا الجماعي ومكالماتي لأمي وصديقاتي نتبادل الأخبار والذكريات.

جاء يوم العيد ورغم أن الكل قد أخذ إجازة، وتجمّعنا حول الحلويات والفطائر، إلا أنه حمل لي شجون أكثر من قدوم رمضان، لم أشترِ شيئاً جديداً - ولماذا اشتري وما زالت حقائبي تضم ثيابا جديدة لم ألبسها حتى الآن-؛ لم يطرق بابي أحد من الأخوة والأعمام والأخوال للتهنئة، لم ألتقِ بوجه أبي وهو مبتسم ويحتضني مهنئاً بالعيد، ويعطيني "العسب" المعتاد، لم تتصاعد رائحة البخور تعبق البيت وتستقبل زوارنا قبلنا، لم يُشرق وجه أمي وهي تقدم لنا كعك العيد على الفطور، لم يحدث كل هذا، ولكننا و-الحمد لله- تجمّعنا في منزل العمّ أحمد قليلاً من الوقت تبادلنا تهاني العيد ثمّ تفرقنا؛ ذهب العم أحمد وخالد للقاء الأصدقاء وتبادل التهاني بمناسبة العيد ؛ وذهبنا للمنتزه أنا وأميمة وباسل وديما وأولادها.

وانقضى الصيف سريعاً كما تنقضي كل الأيام مرها وحلوها، وحلّ الخريف فسادتْ البرودة اللطيفة الأجواء، وبدأتْ الأشجار تلوّن أوراقها بشكل بديع لم أر مثله في حياتي، وتحولتْ أشجار الشارع الممتد إلى لوحة جميلة رسمها الخالق بأروع الألوان، وما هي إلا فترة حتى

بدأتْ الأوراق تتساقط وتحولتْ الأشجار إلى أخشاب خالية من روح الحياة، وبدأ الثلج بالهطول مع قدوم الشتاء، وأكملتُ عاماً من غربتي.

قالتْ لي أميمة ونحن نتأمل الأشجار العارية من أوراقها:

- إن الأشجار تعطينا درساً في الحياة، أنها الآن وحيدة فقدتْ كل شيء، ولكنها صامدة لم تتكسر ولم تنحنِ، وسيأتي الشتاء ويغطي أغصانها بنتاف الثلج الأبيض وكأنها عروسٌ تُزفُ للربيع؛ فيعود لها نبض الحياة وتنمو براعمها وتنفرج عن أوراق خضراء جديدة، وتتوهج فيها الحياة مرة أخرى، وهكذا الحياة مستمرة بكل فصولها.

لم أعتدْ الخروج غالباً إلا للتبضع من محل العمّ أحمد، أو لاستعارة كتب من المكتبة القريبة من عمارتنا، لم يكن لديّ صديقات أتبادل معهن الزيارات، لذا لم أعرف زيارات مثل تلك التي اعتدتُ تبادلها مع صديقاتي في اليمن، وكان واضحاً أن هذه هي سمة حياتي هنا، ولن تتغير ولن يكون هناك زيارات نسائية. فوجدتُ أنه قد آن الأوان لتوزيع الملابس المُكدسة في حقيبة السفر التي لم أفتحها منذ وصولي، والتي تحتوي على بعض ملابس الحفلات ومناسبات نسائية - كنتُ أتوقع أن أحضرها- وبعض الإكسسوارات وحقائب اليد، أخذتُ الملابس والكثير من الإكسسوارات وفرّقتُها على عدة أكياس، وحملتُ هذه الأكياس التي بلغ عددها خمسة؛ يحتوي كل كيس منها على قطعتين من الملابس وبعضٍ من الإكسسوارات، وذهبتُ إلى شقة 5- وكنتُ قد تعرفتُ على الفتيات هناك- وأعطيتُ لكل واحدة منهن كيساً، فكانتْ مفاجأة لهن، سَعِدْنَ بها كثيراً، وسعدتُ أنا أيضاً عندما شاهدتُ من نافذة شقتي ملابسي تتنفس خارج الحقيبة ترتديها الفتيات الشابات في الخارج، شعرتُ أني عملت ما يتوجب عمله، وأعطيتُ الثياب لمن ستلبسها وتستمتع بها.

خالد كان الحاضر الغائب، ينهض متأخراً يتناول فطوره ويذهب لعمله في الميناء، ويعود عند المساء نشاهد لوقت قصير برامج عامة على التلفاز، ونتبادل قليلاً من الكلام وينتهي يومنا. أمّا في إجازات نهاية الأسبوع؛ فيذهب للمساعدة في بقالة عمّه بأجرٍ يعيننا على الحياة إلى جانب راتبه المتواضع. كان خالد يخرج بعد تناول الغداء حتى أثناء الإجازات للجلوس في بيت أحد أصدقائه لتناول القات، وكانتْ الجلسات تطول أحياناً ولا أشعر بعودته إلا عندما يستلقي على فراشه ويجذبني إليه.

لم تكن العلاقة الزوجية بيننا طبيعية أو هكذا كنتُ أشعر، كان قلقاً عصبياً أثناء هذا اللقاء الزوجي؛ وكأنه غير راضٍ عن شيء ما. كنتُ أعلم وتأكدتُ أكثر أن غضبه عندما أبلغه بشعوري بالتعب بسبب الدورة الشهرية لم يكن بسبب تعبي وإنما لأني لم أحمل بعد.

عشتُ مع سمر فرحتها بولادة طفلها الأول، وعشتُ معها هواجسها وقلقها؛ فقد تم تقليص الموظفين في شركة زوجها وتم الاستغناء عنه؛ أما هي فقد تركتْ العمل للتفرغ لابنها. أصبحتْ الحياة في اليمن متعبة، وكل شيء يسير بكثيرٍ من المشاكل والصعوبات. لم أكن أسرد عليها ظروفي كما هي فعلاً؛ لذا كانتْ تردد دائما "إنكِ محظوظة يا صفية". كما عشتُ مع أمي معاناتها من تلك الظروف التي فرضتْ على أبي العمل على سيارته بعد أن حوّلها لسيارة أجرة؛ وعلى إخوتي أعباء ثقيلة يحاولون الصمود أمامها بدعم رواتبهم، ومع ذلك فالحياة في اليمن أصبحتْ غالية جداً، وعَجَزَ الراتب على مجاراة هذا الغلاء.

*****

وكان الجانب المضيء من الأخبار يأتي عبر هاتفي من صديقتي شيماء، تحدثُني عن شقتها الجميلة وعن المدينة المُتخمة بالحدائق والمتنزهات وعن البحيرة الرائعة التي بين مدينتها وبين إحدى مدن أمريكا، وعن زيارتها للشلالات المشهورة "شلالات نياجرا" وأخبرتني أن هذا الشلال يوجد في أمريكا أيضاً فعليّ زيارته. حدثتني عن بدء دراستها استعداداً لعدة امتحانات عليها اجتيازها؛ وأخبرتني أن العمل مهم في هذه الدول؛ لمساعدة الأسرة على حياة أفضل؛ لذا فهي لا تخطط لإنجاب طفل هي وزوجها حتى تستقر أمورهما. وأرسلتْ لي كثيراً من الصور لمدينتها وللشلالات.

لم أكن أشتكي لأحد، ولكن أبي كان ينهي مكالمته ورسائله لي دائماً بقوله "إذا احتجتِ لنقود أخبريني سوف أدبرها، وإذا رغبتِ بزيارتنا أيضاً لا تترددي سوف أذلل أي صعوبة تتوقعينها". وكانتْ أمي تنهي حديثها بعبارة "سوف تُفرج وتُصلح الأحوال"، لا أدري لِمَ كانت تقول هذا وأنا لم أشتك أبداً! ولكن كيف لهما ألا يشعرا وأنا لم أرسل أي صور لشقتي كما طلبتْ مني أمي مرارا قبل أن تيأس، ولم أرسل أي صور لنزهاتي المتوقعة مع خالد والتي كان من المفترض أن تُؤخذ على الأقل بداية شهر العسل الذي لم يتم؟! لم أحدثهما يوماً ما وخالد في المنزل؛ لأنه لم يكن يتواجد كثيراً فيه، لا أدري إذا شعرا بما أوصلاني إليه أم لا!

عملتُ على تحسين لغتي بشكل مستمر، كنتُ أقرأ الكثير من الكتب التي أُحضرها من المكتبة العامة، أتحدث مع باسل ومع أمينة المكتبة وكلما أُتيحتْ لي فرصة للتحدث، وأتابع بعض دروس التقوية الموجودة على الانترنت، ولم أتمكن من دخول مدرسة خاصة بالقادمين الجدد؛ لأن خالد لم يرحب بالفكرة واعتبرها مضيعة للوقت رغم أنها كانتْ مجانية.

وهكذا كانتْ حياتي هنا في أمريكا تواصل مرورها برتابة اعتدتُ عليها، في مرات قليلة عندما كنتُ أخرج للتبضع من بقالة العمّ أحمد، وأمرُ على المطعم الهندي يدعوني صاحبها باللغة

الإنجليزية وبلهجة هندية ويُصرُ على أن أجلس لأتذوق الحلوى الهندية في إحدى الطاولات - لم يكن الزبائن يتواجدون في الصباح- ويقصُّ عليّ بعض مما مرّ عليه في حياته؛ فقد كان لديّه مطعم مشهور في بلدته في الهند قبل سنوات كثيرة مرّتْ وكان سعيداً ومقتنعاً؛ ولكنه قرر الهجرة من أجل أولاده الثلاثة، وحكى لي في مرة أخرى، كيف فقد زوجته في حادثة سيارة منذ خمس سنوات - وكنتُ أعلم بذلك من أميمة - وما زال يعيش على ذكراها، ويجد في هذا المطعم الصغير عزاءه؛ فقد أسسه مع زوجته منذ أن انتقلا إلى هذه المدينة وسكنَا في هذا الحي، حتى أنه رفض الانتقال إلى الحي الجديد الذي انتقل له أولاده؛ وفضّل أن يُكمل عمره حيثُ بدأ. كما عبّر لي عن فخره بأولاده، الذين نجحوا وأصبح أحدهم طبيباً والآخر مهندس حاسوب يعمل في شركة كبيرة وأصغرهم. طالب طب، لم يخذلوه، وجعلوا لهجرته معنى.

وعندما أعود من التبضع، أقف مع المرأة الأفريقية إذا وجدتُها على كرسيها في الممر، فتبادلني الحديث عن الجو وعن ابنتها وموعد زيارتها لها، وقصّتْ لي مرة عن هجرتها من تنزانيا وعن أحلامها الكثيرة التي لم تسعْها بلدُها؛ فهاجرتْ إلى أرض الأحلام، كما قصّتْ لي ذات مرة أنها عندما كانتْ شابة عملت مغنية بأحد الحانات هنا في أمريكا، كما مثلتْ أدواراً في مسلسلات محلية، فكانتْ سعيدة باسترجاع حياتها، ومعتزة بالتجارب التي مرّتْ بها.

كانتْ أَحبُ أوقاتي عندما يأتي باسل من المدرسة، كنتُ ألون وأرسم معه، وأحدثه عن بلده "اليمن" فيُصحح لي "لا؛ بلدي سوريا" فأخبره أنه محظوظ فلديه ثلاثة أوطان، وطنان نبذاه ووطن تلقاه، فينظر إليّ غير مستوعب لِما أقول، ويعود للرسم وهو يقول بلغته الطفولية:

- صافي دعيني ارسم..

نظرتُ إلى رسمته؛ وكانتْ عبارة عن سماء ممتدة وبحيرة زرقاء وعلى سطحها بعض القوارب الصغيرة، سألتُه:

- هل تُحبُ البحيرة؟
- أني أحب اللون الأزرق، إنه لون يغطي العالم كله، لون السماء، هل تعلمين أن السماء موجودة في كل العالم؟ وقبل أن أرد؛ واصل حديثه:
- لقد أشترتْ لي أمي معطف شتاء أزرق اللون، وأنتِ أي لون تحبين؟

تذكرتُ عملي وتلك المواقع التي كنتُ أصممها، وتذكرتُ أن اللون الأزرق كان سيد ألوان المواقع جنباً إلى جنب مع الأحمر الداكن، فضحكتُ وقلتُ له:

- هل تصدق؟ أيضا اللون الأزرق وكذلك اللون الأحمر الداكن.
- إذن سوف أرسم لكِ قارب أحمر داكن.

وعاد لرسمته يرسم قاربي الأحمر سائراً مع قوارب الآخرين في البحيرة والسماء فوقهم ممتدة إلى نهاية الصفحة.

سألتُه:

- لمن القارب الوردي، إنه أكبر القوارب؟

قال:

- إنه قارب أمي، فهي تحب اللون الوردي، وقد جعلتُه كبيراً؛ لأني سأكون معها دائماً.

أحببتُ باسل وأحببتُ أحلامه وخيالاته الطفولية، وفكرتُ "هل سيكون لي يوماً ما ابناً أو ابنة؟ ماذا سأطلق عليهم من الأسماء، هل سيفرح خالد؟ ستتغير طبيعته؟ ستنفتح نفسيته على الحياة؟ سنكون أسرة رائعة لو شاء الله".

وذات يوم اتصلتْ لي أميمة تطلب مني أن أحضر ابنها؛ لأنها تأخرتْ في العودة وهي حالياً تطبخ طعام العشاء، أخذتُه وكان نائماً وذهبتُ لشقة أميمة، وقد تركتْ الباب مفتوحاً لي، فدخلتُ وبينما أنا متوجهة لحجرة باسل سمعتُها تغني بصوتٍ ساحرٍ:

" يا طير يا طاير على أطراف الدني ..... لو فيك تحكي للحبايب شو بني يا طير

روح اسألن ع اللي وليفو مش معو ...... مجروح بجروح الهوى شو بينفعو

وتعن ع بالو ليالي الولدني ..... يا طير واخد معك لون الشجر

ما عاد فيه إلا النطرة والضجر ..... بنطر بعين الشمس ع برد الحجر"

وضعتُ باسل على سريره، وعُدتُ أجلس على الكرسي وأسمع لها دون أن تنتبه لي؛ فقد كانتْ غارقة في أفكارها، ذُهلتُ من جمال صوتها وشدتني الأغنية إلى من يسكن قلبي، إلى أهلي وبلدي، فانسابتْ دموعي دون قصد، وتأملتُ... بالفعل "ما عاد فيه إلا النطرة والضجر"، فكرتُ إلى متى سأبقى منتظرة شيئاً ما في حياتي لا أعلم ما هو، أترقبُ حدث لا أدري عنه شيء، قلبي يحدثني أن من المحال أن يستمر هذا الحال. كانتْ دموعي تنزل مع غناء أميمة؛ والأفكار والخواطر تتدفق إلى عقلي المتعب. نظرتْ إليّ أميمة فأسرعتْ تمسح عينيها وتخفي دموعها، وجاءتْ تركض إليّ مبتسمة قائلة:

- ماذا صفية؟ هل أثرتُ شجونكِ، هيا يجب أن تعتادي على الغربة، وتنسي هذا الشجن، أنها حياتنا ويجب علينا أن نعيشها دون اجترار الماضي.

مسحتُ دموعي بدوري، وابتسمتُ قائلة:

- أحاول يا أميمة أحاول.
- لا تحزني؛ فعلى الأقل في يوما ماً يُمكنكِ زيارة بلدكِ ولقاء أهلكِ وصديقاتكِ، لقد اعتدتُ أنا على الغربة ولم أعد حتى أبكي -وكأني لم أر دموعها-، لا تنسي لا أمل لي بالعودة، ولم يعُد أهلي على قيد الحياة.

سكتنا بدخول العمّ أحمد، وسارعتْ هي إلى مطبخها، بينما بقيتُ أتحدث معه قليلاً ثم نهضتُ، فلم يسمح لي وأصرّ على أن أتناول الطعام معهم.

تلك الجلسات القليلة مع الآخرين كانتْ هي الاستثناء من جلساتي الدائمة مع نفسي، فقد كنتُ أعيش مع نفسي أغلب الوقت، وأصبحتُ أنا ونفسي صديقتين، أناجيها دائماً بما لا أحدّثُ به أحداً على الواقع أو على الهاتف، عاتبتُها أن سمحتْ للآخرين بتقرير مصيري، وعاتبتُها على الاستسلام وعدم الرفض لِما كان من وجهة نظري خطأ مميت، تحدثنا كثيراً عن حُلمي وطموحي الذي كنتُ أعيشه، ولكن يظل هناك أمل أن شيئاً ما سيتغير وستشرق شمسٌ في يوم لا نتوقعه.

*****

ولكن ذلك اليوم الذي لا نتوقعه جاء مختلفاً، كنتُ في شقتي أقوم بعملي اليومي، روتين لا يتبدل، فطُرق الباب، وعندما فتحتُه كان العمّ أحمد، استغربت! فهذه هي المرة الأولى التي يصعد للشقة دون سبب، ولكني رحبتُ به فجلس، سألتُه إذا يرغب بقهوة أو شاي، فلم يرُد وطلب مني الجلوس، جلستُ وتوجستُ شراً، "هل حدث شيئاً ما لخالد"؟ فرفع نظره أخيراً وإذا بعينيه ممتلئة بالدموع المحبوسة.

سألتُه:

- ماذا حدث؟ هل خالد بخير؟
- نعم بخير، ولكن ... أبوكِ يا صفية.

كتمتُ صرخة عالية ولكنها رجتْ قلبي، تساقط قطعاً قطعاً، أبي؟!!! لا بالتأكيد لم أسمع جيدا، ربما هو فهم خطأ، هل يمكن أن يتركني أبي ويرحل؟ لا يمكن، لقد وعدني أن يكون إلى جانبي دائماً، لقد قال لي "لا تخشي شيئاً يا ابنتي ".

لم يستطع العمّ أحمد أن يواسيني، قال كلمات قليلة، سمعتُه يقول" الموت حق"، "كلنا سنموت"، ثم خرج... هل تختبر الوحدة قوة تحملي؟ وكلما شعرتُ أني وحيدة، رمتني الحياة إلى وحدة

أكثر!! أبي كان بعيداً عني، تفصلني عنه مساحات كثيرة من الأرض، لكنه كان على بُعد خطوة من هاتفي، أحدثه، أسمع صوته، أشعر بالأمان، ما الحال الآن؟ ماذا يعني أن أدق أرقام هاتفه فلا يرن؟ أهاتفه فلا يرد؟ أي بُعدٍ أكثر من هذا وأي وحدة أكثر من هذه! ولكن لا، سيظل ساكناً في قلبي، سأناجيه وأحدثه ربما بما لم أحدّثْه بالفعل، لن أعُد أخاف أن يقلق، أن يسهر مشغول البال بي، سأحدثُه بكل شيء، وسيبقى رفيق وحدتي.

*****

عشتُ حزني الكبير مع نفسي، عشتُ حزني وحيدة كما هو مُقدر لي، خالد كان هناك في عرض البحر، أميمة شاركتني ما سمح لها وقتها من مساحة حرة، باسل ذلك الملاك الذي أصررتُ على استمرار قدومه إليّ، كان لي بلسمٌ دون أن يعيَ ذلك، يشغلني قليلاً عن همي وهو يسرد لي قصصاً كثيرة جمعها من يومه، بكيتُ مع أمي على الهاتف وقتاً طويلاً، بكيتُ مع سمر بحرقة وقصّت عليّ ألمها هي الأخرى من حياة تخنق كل محاولات البقاء.

لم يمت أبي على فراشه أو على أحد أسِرة المشفى، بل مات في سيارته التي حوّلها إلى سيارة أجرة؛ وشاء القدر أن يكون متواجداً في ذات اللحظة وذلك المكان حيث استقر أحد الصواريخ من رحلته البعيدة فدمّر كل شيء؛ ومات أبي شهيداً.

شعرتْ أميمة باشتراكنا في أحزاننا وتشابه موت أبيها مع موت أبي، وحدتنا الأحزان وعوضتني في إجازة آخر الأسبوع عندما ذهب باسل مع أبيه للبقالة، فجاءتْ للبقاء معي، كان هاتفي يبث آيات من القران الكريم، أنصتنا له وقتاً ثم سحبنا الحديث إلى أوطان استباحتْ دماء أبنائها، وحكام يعيشون على حساب معاناة الشعوب، تحدثنا عن قهر فقدان الأب ذلك السند الذي يبقى دائماً صرحاً للأمان. وبقينا نتجاذب الحديث وقتاً طويلاً، حدثتها عن أبي وحدثتني عن أبيها، بكينا بحرقة، واعترفتْ لي بكلمات متقطعة من حرقة البكاء إنها تزوجتْ زوجها بحثاً عن الأب الذي رحل. تذكرتُ أبي ونظراته الحزينة وهو يودّعُني، تذكرتُ رسائله التي وعدني فيها بأنه سيدعمني إذا ما رغبتُ بزيارتهم، تذكرتُ النقود التي أعطاني والتي عشتُ بها فترة من الزمن ولم يسألني خلالها خالد من أين أحصل على هذه الأشياء المتوفرة في المنزل؟ تذكرتُ مكالماته لي بمنتصف الليل ناسياً فارق الوقت بيننا، صوته وهو يحدثني فكنتُ أشعرُ بالأمان، رسائله التي كانتْ ترد إلى هاتفي فاشتاق أكثر وأصمد أكثر، وتذكرتُ مخاوف شيماء أن تعود يوماً ما للوطن فلا تجد الأهل. فقدتُ السند الذي كنتُ أشعر به دائماً، والذي كان يُشعرني بشيء من الأمان وبأني أستطيع في أي لحظة العودة للوطن، ولكن بموت أبي فقدتُ الوطن.

عاد خالد مريضاً، وكان هذا حاله في أغلب عودته من سفرياته في عرض البحر، واساني بكلمات قليلة، وقال لي "إني محظوظة" فهو قد فقد أباه منذ أن كان طفلاً. بقي على الفراش ثلاثة ليالٍ متواصلة، راعيتُه بقدر إمكانيات منزلنا المتواضع، وجلبتْ أميمة الكثير من الفواكه من أجله؛ وصنعتْ له ما كان يحتاجه من مأكولات تقويه على المرض، وعندما تماثل للشفاء أخبرني أن عليه الذهاب للفحص الدوري، فاستغربتُ! وسألتُه ما الذي يقصده "بالفحص الدوري"؟ تجاهلني وأخذ ملف من درج المطبخ، وخرج مسرعاً متجنباً النظر إليّ.

"مات أبي" أرسلتُ لشيماء بعد أن اعتدتُ على هذه العبارة، وبدأتُ اتقبلُها واستوعبُها وإن لم أصدقها بعد. رن هاتفي مباشرة، وكانتْ شيماء على الخط الآخر تبكي بحرقة:

- كيف مات؟ كيف حدث ذلك؟ هل كان مريضاً؟

أخبرتها وقد أعاد لي بكاؤها كل أحزاني ودموعي، سردتُ عليها حادثة موت أبي داخل سيارته؛ فزاد بكاؤها حُرقة وأخبرتني أن عليها الذهاب لزيارة أبويها وأكملت "أنهم لا ينتظروننا"، وأقفلتْ الخط. شعرتُ أن موت أبي أفزعها، إننا نعتقد أحيانا أن أباءنا سيبقون لوقتٍ طويل، وأننا سنجدهم عندما نرغب بزيارتهم، فهم هناك في أماكنهم ينتظروننا. مات أبي فخشيتْ شيماء أن يلحق به أبوها، "إنهم لا ينتظروننا" هكذا قالتْ.

*****

لم يسافر خالد إلى عرَض البحر لمدة شهر، واقتصر عمله على الذهاب للميناء والعودة عند الرابعة مساءً، وكنتُ أعتبر سفرياته متنفساً لي؛ إذ أبقى أكثر مع أميمة، أخرج معها هي وباسل لحديقة الأطفال في المتنزه القريب مننا، أجلس مع نفسي أحدثها وتحدثني، أذهب لمكتبة الحي الصغيرة، أقرأ قصص باللغة الإنجليزية، وأتحدثُ قليلاً مع أمينة المكتبة "جين".

كانتْ جين امرأة ودودة، تجاوزتْ الستين من عمرها، ولكنها مازالتْ تعمل وتحب عملها كثيراً، وتحدثني عن الكتب وكأنها أولادها، بينما أولادها الحقيقيون رحلوا كلٌ إلى مدينة، تنتظر إجازة رأس السنة حيث يأتون جميعهم مع أولادهم، ويكون ذلك أسعد أسبوع في حياتها. جين أمريكية من أصل كوري، لغتها الإنجليزية لم تكن قوية رغم أنها أخبرتني أنها جاءتْ أمريكا قبل أكثر من أربعين سنة، فسألتُها عن السبب، فقصّت عليّ قصّتها:

- هاجرتُ إلى أمريكا شابة في العشرين من عمري، كان لي طموحات كثيرة وكبيرة، وكانتْ الهجرة بوابة هذه الأحلام، كنتُ منبهرة بكل شيء جديد في هذه المدينة، دخلتُ كلية بهدف أن أدرس الكيمياء؛ كنتُ شغوفة بها كثيراً، وكنتُ أحلم أن أنهي دراستي وأعمل في إحدى معامل

الكيمياء، كان هذا حلمي، ولكني تعرفتُ على شاب كوري يعمل في بقالة كبيرة صاحبها كوري أيضا، أحببتُه وأحبّني، وتزوجنا.

- وتركتِ الكلية، أليس كذلك؟

- نعم طلب مني أن أعمل معه في محل البقالة ولم أرفض، كنتُ أحبه كثيراً ولا أريد إلا أن أبقى معه، ووجدتُ نفسي في أمريكا داخل مجتمع كوري مغلق، لا أدري كيف مضتْ السنوات وأنا لا أتحدث إلا بالكوري، وأنجبتُ أولادي وأصبحتُ المسؤولة عن حسابات البقالة إلى أن بلغتُ من العمر خمسة وخمسين عاماً.

نظرتُ إليها مشجعة لها لتكمل قصّتَها، فواصلتْ بعد لحظة صمت تستعيد بها الماضي:

- توفي زوجي، مرض فترة قصيرة ورحل، كانتْ صدمة كبيرة لي، ربما لأن مرضه كان مفاجئاً وموته أتى سريعاً، فتركتُ العمل في البقالة؛ لم أتحمل ذكرى المكان الذي عملنا فيه معاً عمرنا كله، إلى جانب أني أدركتُ أني لم أكن أحب ما أعمل، ولم أكن سعيدة بعملي، وحاولتُ أن أتذكر لِمَ قبلتُ بهذا العمل كل هذا الوقت؟ وكيف تركتُ دراستي وشغفي؟ ما كان زوجي ليمنعني من أن أحقق حلمي! كان دائماً داعماً لي، ولكني خنقتُ حلمي بيدي دون مبرر إلا أن أبقى سنداً لزوجي في محل البقالة، ربما لو أكملتُ دراستي لتمكنا من أن نعيش ميسورين أكثر. وهكذا بوفاة زوجي تحررتُ من هذا الالتزام، ودخلتُ مدرسة لتعلُّم اللغة لغير الناطقين بها رغم كبر سني، وحصلتُ على هذا العمل في المكتبة، فرحتُ كثيراً به؛ ربما ليس هو الحلم الذي حلمته والذي لم يعُد في العمر متسعاً له، ولكني خرجتُ من تلك الدائرة الضيقة ولم أعُد أقضي وقتاً كثيراً مع المجتمع الكوري، وجربتُ عملاً جديداً، أقرأ أغلب الوقت، أقابل أُناساً كل يوم، ومؤخراً بدأتُ أتطوع في المساعدة في دور المسنين كل سبت، واشتركتُ أيضا في نشاطات جديدة؛ فانضممتُ لمجموعة لديّها أنشطة متنوعة منها تسلُق الجبال مرة في الأسبوع، ومرة أخرى تخييم وغيرها من الأنشطة الرياضية التي لو كنتُ مارستها مع زوجي لكانتْ حياتنا أجمل، ولكن انغلاقنا داخل المجتمع الكوري شكّل حياتنا في روتين لم نستطع الفكاك منه، وجعل من غربتنا أضحوكة؛ فقد نقلنا مجتمعنا إلى هنا.

تأملتُ قصّتها كثيراً واكتشفتُ - مع الأسف- أن المجتمع هنا يحاول أن يكون متجانساً، ولكن أغلب الناس هنا تتكتل وفقاً للبلد التي أتوا منها، منهم من يعيش تماماً كما كان يعيش في بلده دون أن يستفيد مما تقدمه البلد الجديد ودون أن يعرف لِمَ هاجر؟ ومنهم من يتحرر قليلاً ويخوض تجارب جديدة، ويتواصل مع بشر متنوعين يتقبل ثقافاتهم ويتقبلون ثقافته، وبالطبع هناك من ينسلخ عن مجتمعه ويعيش كيفما يريد الوطن الجديد أن يراه.

*****

مرّ شهر على وفاة أبي، رغم حزني وألمي، كنتُ أؤدي كل ما هو مطلوب مني، ولكني لم أحظ برضا خالد لا أدري لماذا؟ إلى أن عبّر عن غضبه بوضوح، فصرخ بي - وكنتُ قد اعتدتُ هذا الصراخ والمشاجرات التي تبدأ بلا سبب وتنتهي دون تبرير كأنها تفريغ طاقة غضب داخله-:

- إنكِ عاقر، هل تعلمين ماذا يعني عاقر؟ هل تعلمين لماذا تزوجتكِ؟ كنتُ أتوقع أن أصبح أباً، أين الابن الذي يُفترض أن تمنحيني إياه؟ لماذا لم تحملي حتى الآن؟!

فهمتُ مراده، وزاد حزني وألمي، بالفعل لقد مر وقتٌ طويلٌ لي كزوجة ولم أحمل! وكنتُ فعلاً أرغب أن أحصل على طفل، كنتُ أحب الأطفال جداً. حتى أمي سألتني في إحدى مكالماتها عن هذا الموضوع، وقلتُ لها لم يأذنِ الله بعد.. قررتُ أن أطلب من أميمة المساعدة، ولكن كان عليّ الانتظار لسفرة خالد القادمة.

سافر خالد؛ تنفستُ الصعداء ونهضتُ مبكرة ألحق أميمة إلى مكان عملها، وكانتْ تعمل لدى امرأة تُدعي (ماري)، أمريكية من أصل روسي، طويلة القامة جميلة الملامح، تبدو في أواخر الأربعين، عرفتُ من أميمة أنها هاجرتْ إلى أمريكا منذ عشر سنوات مع زوجها وثلاثة أولاد مازالوا في مرحلة المدرسة، كانتْ لطيفة وترحب بي دائماً. وصلتُ وجلستُ على أحد الطاولات، قدمتْ لي أميمة الشاي وبعض الحلويات، وجلستْ أمامي وقد شعرتْ أني أتيتُ لغرض.

- أريد أن أذهب للمشفى.
- لماذا؟ هل تشعرين بسوء؟
- لا، ولكني أرغب بعمل بعض الفحوصات.
- حسناً؛ سأذهب معكِ، الزبائن قليل اليوم وسوف توافق ماري.

ذهبنا في الحافلة إلى عيادة الطبيبة التي كانتْ بعيدة نسبياً من مسكننا، وكانتْ هذه أول مرة أتخطى الحي الذي أسكن فيه، وأول مرة أشاهد من مكاني على الحافلة هذه الشوارع وتلك الحدائق والمتنزهات، والكثير من الأسر مع أطفالهم يتنزهون، أن مدينتي تشبه مدينة شيماء كما تصفها لي، ولكني كنتُ أحكم فقط من الحي الذي أسكنه، كان مشهد وحيد ذلك الذي أحفظه عن هذه المدينة، هو مشهد حيّنا الذي يسكنه كثيرٌ من المهاجرين من ذوي الدخل المحدود.

قابلتُ الطبيبة وشرحتُ لها همّي؛ فقامتْ بعمل فحوصات وأخبرتني أنها ستتواصل معي عند ظهور نتائج الفحوصات، ولكنها طمأنتني وهي مبتسمة فقالت :"إن صحتكِ جيدة، أنتِ شابة قوية".

فهمتْ أميمة من حديثي مع الطبيبة ما هو همّي، ولكنها سكتتْ ولم تشارك، وعندما عُدْنا بالحافلة قالتْ لي:

- صفية أعتقد أن من حقكِ معرفة هذا الموضوع.
- أي موضوع؟
- كنتُ أعتقد أنه أخبركِ.
- ما هو؟ أقلقتِني.
- صفية هل تتوقعين أن مشكلة عدم الإنجاب بسببكِ؟!
- لا أدري؛ ولذا قررتُ عمل الفحوصات.
- لو أخبرتِني لوفرتُ عليكِ القلق.
- لِمَ؟ ما الأمر؟
- خالد لا يمكن له أن ينجب، إنه يعاني من الحالة الصفرية، لقد سمعتُه يتحدث مع عمّه.

كان للخبر وقعٌ مدوٍ عليّ، لم أتوقع ذلك إطلاقا؛ وتذكرتُ قوله قبل عدة أيام "الفحص الدوري"، لِمَ لمْ يقل لي من البداية؟ بل قبل أن يتزوجني إذا كان على علم! كان من حقي أن أعرف، أن أوافق! إذا عرف هو بعد الزواج لِمَ لمْ يشركني همّه؟ كنتُ آمل أن أنجبَ طفلاً في يوماً ما، أعيش من أجله ومن أجله فقط، ولكن كنتُ سأقّدر المشكلة وأرضى بما قدّره الله لنا، لكن هكذا دون حوار وإلقاء التهمة عليّ صعب! غصتُ في ألمي وعدتُ بذاكرتي إلى بداية هذا الزواج؛ فسألتُ أميمة:

- هل تعلمين لماذا اختارني خالد؟ لِمَ كلّف نفسه عناء القدوم لليمن وإجراء المعاملة؟ كان يُمكنه أن يتزوج ابنة أحد الأسر اليمنية هنا، كانتْ ستجد في هذا الفراغ متنفساً مع أهلها، صديقاتها، حياتها المعتادة كيفما كانت، لماذا جرجرني من أطراف العالم كأنّي الفتاة المتاحة الوحيدة؟
- كانتْ نصيحة عمّه، أعتقد أنه صادفكِ ذات يوم أمام منزلكم وأنتِ عائدة من العمل ربما من ذاك اللقاء فكر بكِ، لكن دعيني أسألكِ بدوري؛ إنكِ فتاة جميلة، ذكية ومؤهلة، لماذا وافقتِ على رجلٍ لا تعرفينه، سيجركِ إلى بلد لم تودي العيش فيها كما فهمتُ منكِ؟
- لم أوافق، كان إصرار أبي لأول مرة حازماً بشكل قاسٍ، "شاب يعمل في أمريكا لِمَ لا توافقين؟" هكذا قال لي أبي، لم أوافق يا أميمة، ولكن أعترف لكِ أني لم أحارب كما كان يجب أن أحارب من أجل نفسي. لقد انتظرتُ في المنزل أكثر من عامين تاركة كل ما كنتُ أعمل تنفيذاً لأوامره، وخلال هذه الفترة لم أفكر! لم أراجع نفسي! استسلمتُ، ولكن هكذا هو القدر.

صمتُ وكذلك أميمة؛ ووصلنا لحيّنا؛ صعدتُ إلى شقتي ودخلتُ الغرفة؛ رميتُ نفسي على سريري؛ وفكرتُ هل كان يعلم من قبل؟ هل كانتْ له تجارب مع النساء فاكتشف مرضه؟ هل

كان متزوجاً ولم يخبرني؟ ربما العمّ أحمد طلب من أميمة ألا تذكر زواجه أمامي، ربما زواج بالسر!! ولكن لِمَ سيتزوج بالسر؟ لا أدري، ولماذا لم يطلب مني عمل فحوصات قبل أن يعملها هو؟ عادة ما يرجع المجتمع عدم الانجاب للمرأة وعليها التأكد أن المشكلة ليست منها، بعدها قد يقوم الزوج بعمل فحوصات وقد يرفض! لم أعرف ما عليّ عمله الآن، هل أواجهه؟ ماذا سيترتب على ذلك؟ هل سنتطلق؟ هل هذا هو الحل؟ فكرتُ كثيراً وتشوشتْ أفكاري وشعرتُ بالإرهاق ونمتُ.

*****

لم تكن تلك الصدمة هي الصدمة الوحيدة، فقد خبأتْ لي الحياة صدمة أخرى وعرفتُ أن لا أمان ولا ثقة بأحد. تواصلتْ أمي معي وهي تبكي؛ وأخبرتني أن إخوتي زوّروا توكيل باسمي بصفتي أحد الورثة وباعوا منزلنا، وانتقل أخي الأكبر الذي كان يسكن معنا في منزل والدي وعائلته مع أمي إلى الشقة في العمارة التي تركتْها الشركة الأجنبية بعد الحرب. وأخبرتني إن إخوتي لا ينوون إعطائي حقي من هذا الورث "لأني محظوظة"، وأعيش في أمريكا ولا أعاني من شظف الحياة التي يعانون منها في اليمن، كما أنهم يأملون بعمل مشروع بهذه النقود لتحسين حياتهم.

كما أخبرتني أنها الآن تشارك ابنة أخي الصغيرة الحجرة ولم يعُد لها حجرة خاصة، لأن عدد الحجرات في الشقة قليل مقارنة بعدد أفراد الأسرة (أخي وزوجته وثلاثة أولاد وبنت)، وأن إخوتي بصدد عمل مشروع بالنقود التي حصلوا عليها من بيع منزلنا. بكيتُ كثيراً مع أمي ولم أستطع مواساتها إلا بكلمات ضعيفة، وأن الله سيفرجها بالتأكيد كما اعتادت هي قول هذا لي. هالني تصرف إخوتي ولم أتوقعه منهم، فهم يعرفون أني لا أعيش حياة هانئة وأني أيضا أعاني شظف الحياة، وهالني ما آل له حال أمي؛ ولم يكن هناك ضرورة لكل ذلك! كيف يتغير البشر! كيف هانتْ عليهم أمي؟ لماذا لم يبيعوا الشقة؟ على الأقل تظل أمي في حياتها التي اعتادتها؟ لماذا يتجاهلون ما يمكن أن تخبئ لي الحياة في هذه البلدة الغريبة ومع هذا الرجل الأكثر غرابة؟ أليسوا إخوتي؟ أليسوا سندي بعد وفاة أبي؟ لِمَ بخلوا عليّ بنصيبي من ميراثي وهم يأخذون الضعف على أي حال؟ لِمَ يتغير البشر هكذا؟

كان لهذا الخبر وقعٌ سيئ عليّ، وخصوصاً أنها صاحبتْ مشكلتي مع خالد، شعرتُ أنى فقدت السند في بلدي، وإذا عدتُ لها لن أستطيع تدبُّر أمري؛ فهل سأعمل؟ سأستقل بنفسي مع أمي؟ ولكن كيف سيتم هذا الأمر في ظل هذه الظروف الصعبة؟ هل سأجد مكاني في عملي بعد أن تركته كل هذه السنوات؟ أم أن عليّ البحث عن عمل آخر؟ من استشير؟ من أسأل؟ ومع كل هذه التساؤلات كان هناك صوت في أعماقي يقول لي "لا تعودي"!!!.

لم أعرف شيئاً عن طبيعة مشروع إخوتي ولم أسأل عنه، ولكن سمر تواصلتْ معي وأخبرتني بكل ما يتعلق بذلك المشروع، وقالتْ:

- لقد فتح أخواكِ نادي كبير خاص بالرجال، سمعتُ أن المشروع مُشَاركة مع رجل له نفوذ مع جهات عليا، وأنه هو الذي ساعدهم على البيع، وذلّل كافة صعوبات المشروع، إنه مشروع كبير يا صفية.
- وهل هناك من يتردد على هذا النادي في ظل هذه الظروف؟
- حالياً نعم؛ إنه مزدحم جداً كما سمعتُ، ولكنه الآن متاح بأسعار رمزية، ومجاناً لبعض الشخصيات، وسوف يكون سعر التسجيل فيه مرتفع فيما بعد؛ ولا أدري عندها هل سيستمر الإقبال أم لا؟ لقد صرّح الشريك أيضاً أنه سوف يفتتح مع شركاء آخرين نادي مماثل للنساء.
- فليوفقهم الله، وليسامحهم.

(3)

مر عامان منذ وصلتُ أمريكا؛ ومع قُرب انتهاء العام 2019 بدأ تناقل الأخبار عن انتشار وباء كورونا؛ وفعلاً اكتسح العالم في ظاهرة فريدة من نوعها على الأقل في زمن وعيي على هذه الدنيا، مرض انتشر في العالم بأكمله!! ووحدَ قلق العالم بأكمله!! وبنفس الوقت جمّد حركته؛ توقفتْ رحلات الطائرات بين دول العالم، وتوقفتْ حركة السيارات، وحركة البشر وتحوّل العالم إلى لوحة صامتة.

غيّر الوباء العالم وغيّر حياتي، توقفتْ الكثير من الأعمال وتم تسريح أغلب الموظفين والعمال؛ توقفتْ أعمال الشحن كلها وتم تسريح خالد؛ وكان لتسريحه وضعاً كارثياً عليّ وعلى حياتنا، فقدنا الدخل الذي كنا نقنع بالعيش عليه، عاد زوجي للعمل في محل البقالة والتي كانتْ تفتح أياماً محددة فقط بسبب فرض إغلاق أغلب الأماكن العامة، بدأ غضب خالد من الوضع يزيد فيصبُه عليّ؛ والغريب أنه بدلا من كلمة عاقر استحدث كلمة جديدة "عاطلة"، وقال لي ذات يوم وكأنّه شخصٌ آخر:

- لِمَ لا تعملين؟ هناك العشرات من الأعمال التي يمكن لكِ العمل فيها؟ ألم تقولي أنكِ تخرجتِ من الجامعة؟؟ ماذا استفدنا؟ لِمَ لا تعملين بتلك الشهادة المزعومة؟!

تأملتُ إليه وكأنه شخصٌ آخر؛ تملكتني الدهشة والفزع؛ فقلتُ له:

- ألم أطلب منك هذا بمجرد قدومي؟ ألم ترفض؟ وكيف لي الآن العودة لتخصصي، وكيف لي أن أعيد تأهيل نفسي في ظل هذا الحظر؟ تأخرتَ يا خالد تأخرتَ، حوّلتني إلى إنسانة عاقر وعاطلة؛ وتريد الآن أن أتحوّل فجأة إلى النقيض، تأخرتَ يا خالد.

- ليس شرطاً أن تعملي بتخصصك الذي لا أعرف عنه، اعملي بأي عمل، يكفي أن نحصل على نقود إضافية.

استمرتْ تلك المشاجرات أو الجدال العقيم يومياً، ولكن من حسن حظي أنه كان يقضي جُل وقته ما بين محل البقالة وما بين أصدقائه وجلسات القات وملحقاتها، والتي كانت تتم في منزل أحد الرجال العزاب وبسرية كبيرة. ومع تدهور وضع الأعمال في البلد بسبب الوباء توقف محل البقالة أيضاً؛ ولزم العمّ أحمد بيته أغلب الوقت، كما أُغلقتْ المحلات أسفل العمارة وتوقفتْ حركة السيارات في الشارع، فساد الهدوء وانعدم ضجيج الناس وكذا ضجيج الأطفال في الحديقة الخلفية، وصار الصمت سيد الواقع، ولم يعُد يصلني إلا القليل من شجار الجيران وقليلاً من ضجيج الأطفال المحبوسين بين جدران شققهم، الكل خائف، الكل يشعر أن الموت متربص به، يتحين الفرصة للقضاء عليه.

كنتُ أجلس طويلاً أمام النافذة المواجهة لحديقة الأطفال؛ فلا أرى إلا بعض الطيور تزورها أو تعبُرها متجهة إلى حيث لا أعلم، أمّا إذا جلستُ على الممر المفتوح أمام الشقق والمُطل على الشارع؛ فلم أكن أسمع إلا حفيف الأشجار وهو يتقبل مداعبة الهواء لأوراقها، الشارع خالٍ من السيارات ومن البشر إلا بعض الخطوات القلقة والمسرعة لشأنٍ ربما مهم جداً، عدا ذلك الكل متخفٍ في المنازل، حتى الضجيج من الشقق المجاورة لي أصبح أخف، كأنّ الأطفال يخشون أن تدُل أصواتهم هذا الوباء اللعين على مكانهم، كأنّ الأزواج يئسوا من شجارهم اليومي وهم يترقبون موتاً قادماً. توالتْ قنوات التلفاز تسرد عدد الضحايا بالعالم وعدد الضحايا هنا في أمريكا، ونالنا أول إصابة، راحتْ المرأة العجوز الوحيدة؛ لا أدري كيف أصابها المرض وهي لا تخرج من شقتها، ولكن ربما عن طريق ابنتها من زيارة سابقة؛ لا أدري؛ ولكن ابنتها جاءتْ قلقة من عدم ردها على الهاتف؛ فوجدتْها في حالة سيئة، وتم نقلها فوراً للمستشفى وتعقيم الشقة والممر ورش الشارع بأكمله بينما رحلتْ هي سريعا، لم تساعدها سنوات عمرها على المقاومة، أو ربما فضلتْ الاستسلام. بكيتُ عليها كثيراً، كأنّها صديقة عزيزة، بكيتُ وحشة الموت وحيدة، بكيتُ ألم الغربة، بكيتُ أشياءً كثيرة.

تأثر عمل أميمة أيضا؛ وأغلقتْ ماري صاحبة المقهى محلها مضطرة، ولكن أميمة لم تتوقف؛ وقررتْ أن تجدَ مخرجاً أي مخرج؛ فبدأتْ تصنع الحلويات في بيتها كما كانتْ تعمل سابقاً، وتقوم بتوصيلها إلى المنازل التي تطلبها منها، والتي تعرفها من قبل. كنا نخرج سوياً بحرصٍ شديد، وأصبحتْ تلك رحلاتنا القليلة أنا وهي وباسل الصغير الذي توقفتْ مدرسته أيضا، فكنّا نلبس كماماتنا التي فرضها الوباء ونذهب لتوصيل تلك الطلبات، كنتُ قد خلعتُ العباية منذ فترة طويلة ولبستُ ملابس عادية مثل أميمة، ولم يعرف خالد ذلك، أو أنه نسى أيضاً هذا الجزء من تعليماته، وعلى أي حال كان قد بدأ بالتغيُب وقضاء لياليه في شقة أصدقائه، ولم يعُد يتابع ما أعمل أو يهتم به.

*****

كانتْ أميمة بالنسبة لي قدوة، ذكية، مرحة رغم ما مرّتْ به، متفائلة وغير مستسلمة رغم الظروف الحالية، كان ولا بد لي من التحرُك مثلها؛ لم يعُد للجمود الذي أعيش فيه أي مبرر، تحررتُ قليلاً من الخوف من خالد، من الخوف من مجتمع غير موجود أصلاً خلقه خالد في مخيلتي فقط، قررتُ أن أساهم على الأقل بما احتاجه أنا؛ أكفل نفسي، فأنا لم أعُد أعرف مصيري في هذا الزواج، ولا مصيري لو تخليتُ عنه.

سألتُ أميمة إذا كان من الممكن أن أعمل كعك يمني في المنزل؛ ونعطي منها مع الطلبات التي نسلّمُها لزبائنها ونعتبرها هدية ودعاية كمرحلة أولى. تحمستْ أميمة كثيراً وشجعتني؛ وأضافتْ

للفكرة كثيراً من البهجة والمرح؛ وكأننا ننوي عمل كعك لرحلتنا الخاصة في المنتزه. اشتريتُ المكونات ودخلتُ مطبخي الصغير؛ وبدأتُ أعمل الكعك وكنتُ أجيده منذُ أن كنتُ في بيت أهلي؛ بل كنتُ معروفة بأني أصنع كعكاً لذيذاً. وضعتُ الكعك على الطبق وقد رشيتُ الحبة السوداء على بعض الكعك والسمسم على الآخر، وبمجرد أن تذوقتْ أميمة الكعك صاحتْ مبتهجة؛ وعبرتْ لي عن روعة طعمه؛ وأنه ألذ حتى من كعك زوجة أحمد الذي كانت تعتبره الأفضل دائماً.

لم يكن ابتهاج واعجاب أميمة بالكعك اليمني قاصراً عليها؛ فقد نال إعجاب زبائنها أيضاً، اليمنيون منهم فرحوا برائحة وطعم الوطن، والأمريكيون منهم نال إعجابهم وطالبوا بالمزيد. فرحتُ وابتهجتُ كثيراً ربما أكثر من ابتهاجي عند نجاح أول موقع لي، ربما لأن للنجاح هذه المرة طعم الخلاص وطعم الأمان، أو ربما لأني وجدتُ الكعك وسيلة قد تنجيني من شر الحاجة.

بدأتُ أصنع الكعك اليمني وأبيعه - وإن كان العمل يتم بحذرٍ وبكثيرٍ من الاحترازات المفروضة علينا بسبب الوباء-، تلقيتُ طلبات قليلة وصار لي زبائن، تعرّفتُ على كثيرٍ من العائلات السورية والعراقية في الحي، وقابلتُ الكثير من الشابات اللاتي يعملْنَ ويساعدْنَ أسرهن ويندمِجْنَ في المجتمع الجديد الذي صار لهم مجتمع ووطن، فمُدِدتُ بالحافز والثقة.

جنيتُ القليل من المال، واستطعتُ أن أعول نفسي، بينما خالد غائب لا أدري أين؟ ولكن غيابه كان مساعداً لي في التحرك والخروج، عرّفتني أميمة على منظمة دعم النساء المهاجرات، والتي تعمل بها ديما متطوعة على أمل الحصول على عمل بها ذات يوم وخاصة بعد توقف عملها بالتجميل، ولم يعُد لديّها زبونات مع قيود الإغلاق الذي حدث.

كنّا أنا وأميمة نقضي أوقاتنا أحياناً في منظمة دعم النساء المهاجرات التي كانت تزاول عملها لساعات محدودة وفي أيام قليلة في الأسبوع -بسبب قيود الوباء- فنُقدم لهنَّ (ديما وزميلاتها الموظفات) الكعك اليمني وحلويات أميمة الحلبية مجاناً؛ ونقضي وقتاً معاً؛ نجلس متباعدات ونلبس الكمامات، نتحدث عن الظروف في ظل هذا الوباء، وتأثيره على العالم بأكمله.

الكل خائف، الكل متشكك، ما هذا الوباء الذي سيطر على العالم ببساطة!؟ شلّ حركته، وضحاياه يتزايدون كل يوم، لا أفق يبدو لهذا الوباء. شكتْ لنا إحداهن أن جدتها توفتْ، وحكتْ أخرى أن زوجها أُصيب وشفى، ولكنه دوماً يشعر أنه منهك، متعب، لم يسترد قوته وصحته تماماً. كان هذا الوباء غزواً من عالم آخر، يريد أن ينقض على من في الأرض، يحاربها بأسلحته دون أن يظهر، فلا نستطيع مجابهته، فقط علينا حماية أنفسنا قدر المستطاع. شكتْ لنا موظفة من أصل هندي أن بلدها تحصد أعداداً كبيرة من المصابين؛ وأعداد الوفيات يرتفع،

فزحمة البشر في الهند لا تسمح بتطبيق قواعد الاحتراز، كما أن الشعب الهندي لم يتعود الالتزام بشكل جاد، كما التزم شعب الصين رغم كثرتهم.

كما كنّا نقضي وقتنا أيضا مع فتيات الشقة 5؛ وكنَّ في تلك الفترة أربع فتيات؛ وصلْنَّ حديثاً في أوقات متقاربة؛ فأعاقهُنَّ الوباء عن البحث عن عمل. (رحمة الصومالية) شابة مسلمة ربما قاربت الثلاثين من العمر ذات بشرة داكنة فارعة الطول ورشيقة ذات ملامح هادئة، شعرها مجعد قصير، ولم تكن مرتدية الحجاب، و(مليكة المرأة الأفغانية) ربما قاربتْ الأربعين، ملامحها صارمة لا تُعبر عن شيء، معتدلة الطول والجسم، تضع على شعرها خماراً يُظهر قليلاً من شعرها الذي يتخلله شعيرات بيضاء، و(ميادة الفتاة السورية) تبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، رقيقة الملامح، طويلة يسكن في عينيها حزنٌ عميق، أيضا لا ترتدي حجاب، شعرها قصير، غير مرتب، اعتادت على قص شعرها دون اهتمام، وأخيراً (إيفا الأوكرانية) قد تكون في الثلاثين من عمرها، فتاة جميلة الملامح، متوسطة الطول ذات بشرة ناصعة البياض وشعر أشقر طويل. جلسنا متباعدات وأيضا نضع الكمامات، نتبادل الأحاديث المتنوعة إلى أن وصلنا إلى الأقدار التي ألقتْ بهن إلى الهجرة والاغتراب واللجوء.

قالتْ رحمة الصومالية:

- كما تعلمنَّ أن الوضع في الصومال مضطرب، لم تحظ البلاد لفترة ما على استقرار منذ زمن، نزاعات دائمة وخوف ورعب عشناه بشكل دائم، إلى جانب المجاعة التي تعاني منها الصومال بسبب ندرة الامطار ممّا سبب جفاف اكتسح مساحات واسعة من البلد. كنتُ أعيش مع أسرتي في قرية قرب مدينة (بورما)، ولكن الجفاف الذي عانتْ منه أغلب مناطق الصومال أفقدنا ما كنّا نملك من ماشية قليلة وأرض زراعية، فنزحنا إلى المدينة نفسها (بورما)، ولم يتحسن الحال، فرحلنا إلى (مقديشو)، ولكن الوضع لم يكن جيداً أيضاً، قضينا فترة هناك حتى بلغتُ الخامسة والعشرين، وكنتُ قد انهيتُ المدرسة في قريتي، وتوقفتُ بعدها عاجزة عن الاستمرار. سمعتُ عن مخيمات اللجوء؛ فقررتُ مع مجموعة شباب وشابات النزوح إلى هذه المخيمات في طرف الصومال، تاركة أهلي هناك يتمنون لي حياة أفضل، عشتُ في المخيّم ثلاثة أعوام كانتْ في غاية الصعوبة، عانينا كثيراً، وفكرنا بالعودة، ولكن بعد طول معاناة وصبر تم ترحيل مجموعة منّا إلى هنا وأنا منهم، لا أملك أي مؤهلات لا أحمل إلا عمري وسنواته القادمة، و-مع الأسف- إلى الآن لم أتمكن من التواصل مع أهلي، ولا مع من تم ترحيلهم إلى هنا؛ وقد كنّا نعتبر أنفسنا أسرة واحدة، وحدتها المعاناة والمصير المشترك.
صمتتْ قليلاً؛ ومسحتْ دمعة فرتْ من عينيها، وأكملتْ:

- كنتُ أعرف أن أفضل أقداري أن أغترب، ولكني لم أكن أعلم أن للغربة كل هذه المرارة، ولم أكن أعرف أن مشاهدة الوطن من بعيد تحمل هذا الألم، أبي، أمي، أهلي، أحلم بهم كل يوم، لا يعرفون مصيري ولا أعرف مصيرهم، شعور مفزع، أحاول أن أتجاهله، أعقد مع نفسي أمل أن أجد نفسي يوماً ما قادرة على العودة وأنا أملك القوة التي تُأهلني للبحث عن أهلي والاطمئنان عليهم. احتاج لوقت حتى أستطيع أن أعود للحياة الطبيعية وللعمل وإعالة نفسي، ولكني أخاف أن تكون مؤهلاتي الضعيفة عائقاً، فأعيش في القاع، دون أمل، أرغب أن يكون لرحيلي عن أهلي ووطني فائدة حقيقية، أجد حياة كريمة، أحقق ذاتي وأصنع حياة افتخر بها، وأعود يوماً للصومال وأبحث عن أهلي وأجدهم وأعيش هناك أو أعود بهم إلى هنا، هذا حلمي الذي أسعى إليه، إلى الآن مازلتُ أحاول أن أتواصل مع أهلي، ولكن مع هذه الظروف لا أدري كيف يمكن أن أصل إليهم، المنظمة لم تعُد تعمل بشكل طبيعي، كما أني سمعتُ أن الوباء يفتك بأهل الصومال أكثر من غيرهم؛ لأنهم لا يملكون الرعاية المناسبة، ولا يستطيعون مجاراة القيود والعزل كما هو الوضع هنا.

سكتتْ منهية حديثها بابتسامة خافتة، ونظرتْ إلى مليكة الأفغانية مشيرة لها أن تبدأ قصتها، فقالتْ:

- نفس القصة، بلد لم يعرف الاستقرار، صراعات لا نعرف أولها ولا نهايتها، تَجاذبنا المشاكل من كل صوب، يدّعون أنهم يصنعون لنا الحياة الأفضل، فلا نجد أمامنا إلا الموت والدمار والخراب، حقيقة لا أعرف كيف يفكر الذين يسعون جاهدين لتدمير بلادهم؟!

صمتتْ تأخذ نَفَساً من حرقة الغضب داخلها؛ وقالتْ:

- نعود لقصتي، درستُ في كلية الطب، لم أتخصص ولكني عملتُ في المشفى خمس سنوات في قسم الأطفال، لم أتزوج ولم أفكر حتى بذلك، كانتْ الحياة صعبة وأنا بمفردي؛ فكيف سيكون الوضع بوجود أطفال لو تزوجتْ وأنا أشاهد يوميا عجز الأهل عن الإيفاء بالمتطلبات الأساسية لأولادهم؟ عشتُ لمهنتي، ولكن لم يكن الوضع ممكناً كوني امرأة عاملة وحيدة في بلد تنظر للمرأة نظرة دونية، وتكثر من وضع القيود عليها، تلقيتُ الكثير من المضايقات، والكثير من الأوامر التي لا أستطيع تنفيذها، وأُجبرتُ على العمل بالتوليد عندما نقص عدد الطبيبات بالقسم وزادتْ أعداد النساء اللاتي يأتينَ للولادة، وكان يُطلب منّا العمل ونحن مرتديات لملابس فضفاضة وحجابات طويلة وللنقابات أيضاً، لم يكن من السهل العمل في هذه الظروف، مررتُ بمواقف لا أريد أن أذكرها.. كنّا نطلب من فتاة صغيرة الوقوف في الممر للمراقبة، فنخلع نقاباتنا ونخفف من ثيابنا حتى نستطيع المساعدة بالتوليد في ذلك الجو الخانق، وإذا ما جاء أحد حُرّاس المشفى سارعتْ الفتاة لإخطارنا، فنسارع لارتداء ما خففناه. شاهدتُ حالات ولادة صعبة في ظل النقص الشديد للمستلزمات الطبية، فكانتْ كثير من النساء يتوفين مع أطفالهن المواليد بسبب نقص الرعاية

وعدم المبالاة بهن. حتى في قسم الأطفال، كان نقص الضروريات سبب في معاناة الأطفال المرضى ووفاة كثير منهم لأتفه الأسباب، لم أعُد قادرة على التحمُّل، انتابتني الكوابيس كل ليلة، حياة البشر أصبحتْ رخيصة، الموت يأكل باليوم العشرات ولا أحد يسأل لماذا؟ ومن السبب؟ شيءٌ مخيف؛ لا أحد يهتم، لديّهم مخطط يسيرون عليه كالمغيبين، لا يرون الدمار في وطنهم ولا يسمعون أنين المرضى ولا يهتمون بالمقابر التي تكتسح الأراضي من حولنا، لم أعُد اتحمل؛ فقررتُ أنا واثنتان من زميلاتي مع مجموعة من الرجال الهروب بمساعدة مهربين، دفعنا لهم كثير من الأموال، ولا أدري لقاء ماذا؟ لم يوفروا لنا شيئاً يُذكر، هربنا براً إلى تركيا، سرْنا طريقاً طويلاً، تحمّلنا الحر والعطش والجوع، نجحنا رغم أن أمر اكتشافنا كان على وشك الحدوث عدة مرات في رحلة الهروب، مرتْ أيام لم نأكل فيها شيئاً، كنّا نشرب قطرات فقط مما نملك من الماء. غطتْ مليكة وجهها، وبكتْ بصوت مخنوق، احترمنا بكاءها وشاركنها بصمت، رفعتْ رأسها مرة أخرى، واكملتْ:

- مات منا اثنان أثناء رحلة الهروب، أحدهم - وكان أكثرنا قوة- لا نعرف كيف مات، كان موته صدمة لنا، يئس الكثير، صرخنا في الخلاء، ولكنّا واصلنا السير، ولم نكن نملك خياراً آخر غيره ، وعندما وصلنا إلى إيران واجهنا سوء المعاملة من جنود الحدود، قضينا أياماً دون طعام، حتى تبنتنا المفوضية وسكنتنا في خيّم، عشنا فيها شهوراً، وأخيراً تم جلبنا إلى هنا، في البداية تم وضعنا في عدد من القواعد العسكرية أُتخذت مقر إقامة مؤقت لنا لحين استكمال عملية المراجعة الأمنية، وأخيراً أُرسِلتُ إلى هذه المدينة.

انهتْ مليكة قصتها وهي تغالب دموع مرارة الذكرى القريبة، ولفتتْ لإيفا قائلة:

- ربما تجربتكِ أخف من تجاربنا، هيا احكي لنا.

ابتسمتْ إيفا بأسى، وقالتْ:

- فعلاً، إننا أكثر حظاً، لم نمُر بهذه التجارب المأساوية، ولكننا عانينا في بلدنا كثيراً، بدأتْ الحرب في مدينتي (دونباس) منذ 2014 وتحوّلتْ الحياة إلى خوف وقلق يومي، لم نعُد نشعر بالأمان، فقدنا قدرتنا على أن نعيش حياتنا بشكل طبيعي، خشيتُ أن يمر العمر وأنا أراقب انتهاء الحرب، والتي لم يظهر أي مؤشر لانتهائها، كان العالم يروّج لها ويدعمها، وتزداد شراستها بكل تلك الأسلحة التي كانت تتدفق إلينا.. درستُ في بلدي إلى السنة الثانية من دبلوم الفندقة والسياحة؛ ولم أكمل بسبب الظروف التي تمُر بها البلد، لم تكن الغربة واردة في عقلي، لم أتوقع أن أغترب، أن أهرب، أطلب اللجوء، أطلب الحماية من وطني! كانتْ أحلامي أن أعيش في بلدي أتزوج خطيبي، أنجب طفلاً أو طفلين، أحلامي بسيطة ولكن وطني لم يتسع لها! فقدتُ خطيبي في الحرب الدائرة، فماتتْ أحلامي معه، وبدا خيار الرحيل خياراً وحيداً، كنتُ أهرب من كل شيء، أهرب للمجهول كيفما كان. بالفعل كنّا- إذا صح التعبير- محظوظين، لأننا لا نحتاج للفيز لدخول كثير من الدول،

كان من السهل علينا أن نقرر الرحيل، أمي متوفية منذ سنوات، وأبي التحق بالجيش، وقد شجعني على الانضمام لمجموعة هربتْ من الحرب المستعرة إلى ألمانيا؛ دخلنا بسهولة وبقليلٍ من الترحيب على أي حال، وهناك تم وضعنا في مخيم اللجوء فترة قصيرة قبل أن يتم توزيعنا؛ وجئتُ هنا مع صديقتين تم إرسالهما إلى ولايات أخرى.
نظرنا كلنا لميادة المتبقية من المجموعة؛ فقالتْ:

- يا إلهي تجارب متنوعة، ولكنها كلها تحمل في طياتها البحث عن الأمان ولا شيء آخر، تصبو نحو الحق بالحياة الكريمة ولا شيء آخر، أعتقد أن الهجرات الطبيعية على مر الزمن قد يحلم أصحابها بحياة أفضل، باستكشاف عالم جديد، بأحلام يحققها، وتجارب غنية يعيشها. تلك الهجرات التي يقرر أصحابها بشأنها بهدوء وروية- لديّهم وطن إذا ما رغبوا بالعودة-؛ وإن كنتُ لا أعرف لماذا يهاجر البشر من وطن لا حرب فيه، ولكن وضعنا هنا -كلنا ساكنات هذه الشقة- مختلف، اللجوء هو بحث عن أمان فقط، فإذا تحقق هدأتْ النفوس وطالعتْ الحياة بنظرة تفحُص، هل يمكن أن نفتح صفحة جديدة؟ نطوي ما مرّ؟ هل يمكن أن ننسى وجوهاً رحلتْ من دنيانا؟ هل يمكن أن ننعم بحياة سعيدة رغم غياب أصواتٍ كانتْ لنا حياة ودنيا، لا أدري؟
ردتْ عليها أميمة:
- سبحان الله يا ميادة، نعم نستطيع أن نُخلق من جديد، لقد أسستُ حياة هنا، زوجي وابني صاروا لي بهجة وسعادة، نعم لقد بنيتُ لي دنيا ثانية وأحلم بتحقيق الكثير من الأمنيات، رغم أني أتيتُ من تحت الأنقاض، أصوات من أحب ما زالتْ عالقة في عقلي وذاكرتي، وأصوات أنينهم تحت الأنقاض ما زال يُحفزني لأعيش.
نظرنا إلى ميادة نشجعها على إكمال قصتها، فعادتْ تقول:
- صعب أن أستعيد الذكريات أنها خناجر تشق قلبي! عموماً لم أتلق من العلم إلا القليل، استطعتُ أن أنهي مدرستي بصعوبة، وأصبحتْ مواصلة الدراسة رفاهية لم أعُد أحلم بها، رغم أني كنتُ أحلم أن أصبح مهندسة وأن أشترك في إعادة بناء بلادي، ولكن لم يكن هذا متاح نهائياً. عملتُ فترة في محل خياطة، وكنتُ هناك عندما سقط ذلك الصاروخ على منزلنا وليتني كنتُ في المنزل، كنتُ رحلتُ مع من رحل. عُدتُ من العمل وشاهدتُ بأمّ عيني إخراج أهلي كلهم من تحت الأنقاض، خرجوا أجساداً دون أرواح، لم يبق معي أحد، كلهم تركوني وحدي.
صمتتْ وشخصتْ ببصرها أمامها، صارعتْ بقلبها مرارة الذكرى وألم الفقد، صمتنا معها، بعد ثوانٍ عادتْ تُكمل حكايتها:
- لم أتحمل هول الصدمة ولم أستطع تحمُّل الموقف، سقطتُ غائبة عن الوعي وعن العالم، وجدتُ نفسي على سرير في مكانٍ ما جهلته لم أعرفه لفترة طويلة، كنتُ أغيب فيها عن الوعي عدة مرات، وعندما عدتُ لوعيي بشكل كامل عرفتُ أني في المشفى؛ وكان أمامي جارنا الذي

فقد أسرته بأكملها في نفس الغارة، اقترب من سريري، كان وجهه وجه ميت يتحرك، شاحب، نظراته زائغة، همس لي "لا وقت للمرض؛ المرض صار رفاهية لا حق لنا به"، كان عليّ أن أنهضَ واستمعَ له، يجب أن نلتحق مع مجموعة سوف يتم تهريبها إلى تركيا ولا وقت لديّنا، وأخبرني أنه قد دبّر النقود المطلوبة للمهربين لي وله، وهكذا وقبل أن أستوعبَ ما حدث وجدتُ نفسي بعد رحلة شاقة إلى تركيا قريبة ممّا وصفته مليكة في مخيم لجوء في الأردن بعد أن رفضتْنا تركيا، وكنتُ وحدي دون أهل، دون أصحاب، دون وطن، حتى جاري لا أعلم أين هو؟ هل أكمل الرحلة؟ أم أن شيئاً ما قد حدث له، فكنتُ غريبة تماما ووحيدة.
قلتُ لها وأنا اشاهد دموعها تجري على وجنتيها:

- لا داعي أن تكملي يا ميادة إذا صعُب عليكِ الأمر.

فقالتْ:

- لا، إنّها النهاية، وصلتُ للنهاية. وجدتُ نفسي هنا، وزّعتنا المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، و-الحمد لله- أني أعيش الآن مع صديقات على أمل أن ينتهي الوباء؛ لنتمكن من البحث عن عمل رغم ضعف مؤهلاتنا وسوء حالاتنا النفسية. ربما يأتي يومٌ ما وأكون مثل أميمة وديما، لديّ أسرة وحياة، ولكني ما زلتُ أحلم أن أعود لسوريا، أشعر أن قلبي لا يستطيع أن ينبض إلا هناك في سوريا.

وهكذا مرتْ أمامنا تجارب فتيات أجبرتهن ظروف الحرب وفقدان الأهل إلى الهروب والهجرة إلى المجهول، قليلة هي مؤهلاتهن وقليلة خبراتهن وقليلة سنوات عمرهن، هل ستعطيهن أمريكا الأمان والعمل والحياة بشرف وكرامة؟ آمل ذلك. للغربة وجهان، الوجه الأول قرار للهجرة وتذكرة ذهاب دون عودة، وحقيبة محمّلة بالقليل من الثياب والكثير من الأحلام، والوجه الثاني لجوء، هروب، دون تذكرة، دون حقيبة ودون أحلام، مع ثقل ومرارة وحنين لوطن جريح لم يحفظ لمواطنيه الكرامة والأمن والأمان. تأملتُ "لقد جمعتُ أنا الوجهين، هجرة ووطن جريح".

عُدْنا للحديث عن الوباء والقيود، وتطرقنا للفرص المتاحة أمامنا، وتناولنا حلويات أميمة الحلبية والكعك اليمني، ومرّ اليوم يحمل ثقل الذكرى وألم الفقد ومرارة الغربة وربما أمل وحلم في قلوب الفتيات.

*****

لم يترك الوباء أي أثر للخوف في بلادي؛ وكأنّها خارج حدود العالم، أو كأنّها في كوكب آخر، وأخبرتني أمي أنها إشاعة، وأخبرتني سمر أن لديّهم وباء أبشع وأشنع، وأن حياتها مع زوجها

ترتطم بجدار البطالة والخوف من شر الحاجة، وهذا ما يُفزعها أكثر من الوباء. ولكن الوباء كان بلاءً على شيماء، فقد اخبرتني بأحد مكالماتنا على الهاتف، أن آخر الامتحانات المطلوبة لاعتمادها كطبيبة أسنان كان قد تحدد موعده، ولكنه قد تأجل بسبب الوباء إلى أجلٍ غير مسمى.
واشتكتْ لي قائلة في مكالمتها:

- لقد سبب لي ذلك احباطاً كبيراً؛ كان سقف توقعاتي عالٍ، اعتقدتُ أني سوف أصبح طبيبة معتمدة خلال شهور قليلة؛ وها قد مر ما يقارب العامان، لم أعُد سعيدة بهذه الهجرة والغربة، تغربتُ وأنا تواقة إلى حياة جديدة، أمارس فيها عملي وأساعد زوجي، ولكن الحياة تبدو متوقفة.
واسيتُها وأخبرتُها أن عليها الصمود والتفاؤل والحمد لله؛ فليس عليها مسؤولية كبيرة، ودخل زوجها يناسب حياتهم (كما اخبرتني سابقاً)، لا داعي للقلق. فصاحتْ قائلة:

- صفية لقد آن الأوان، ويجب أن أحصل على طفل إذا شاء الله.
- لقد كان لديّكِ خطة، وهي تأجيل الطفل لحين حصولكِ على الاعتماد كطبيبة أسنان، هل تنوَين تغييرها؟
- لا أخفي عليكِ صفية؛ لقد ناقشنا أنا وجميل الموضوع؛ وفكرنا لو أننا قررنا المخاطرة وترك الأمور دون موانع، ربما نحصل على طفل، وإذا شاء الله وجاء سريعاً سأتمكن من الحمل والولادة في فترة الإغلاق وسننجو، أما إذا تأخر فربما يأتي الامتحان الأخير وأنا حامل، عندها سأتعثر قليلاً، وربما سأضطر لإعادة الامتحان إن لم أوفق فيه، لا يهم سيكون ثمن قرارنا وعلينا أن ندفعه، وهو ثمن نقبل به من أجل ابننا.
ثم ضحكتْ واكملتْ:

- أو ابنتنا.

وكأنّهما اتخذا قرارهما، وكأنّ الله بارك لهما القرار، فبعد شهرين تواصلتْ معي وأخبرتني أنها حامل ولم يعُد يزعجها توقيف كل شيء؛ فقد أصبحتْ الآن تنتظر طفلها الأول؛ فناسبها المكوث في البيت، وكتبتْ لي على الهاتف " تغيير رائع أن نبقى أنا وجميل معاً طوال الوقت نراقب حركة الجنين ونبني له حياة"، ضحكتُ من عبارتها أن كارثة عالمية أصبحت وضعاً رائعاً عندها، ولكني اكتشفتُ أنها أصبحتْ تغيير جميل لي أيضاً مع اختفاء خالد من حياتي تقريباً؛ وبالوقت الذي تقيّدتْ فيه حركة العالم تحررتْ حركتي وصار لي محيط، مجتمع، أناس، أقضي معهم الوقت بدلاً من قضائه مع نفسي والصغير باسل الذي كان بالنسبة لي ابن أحببته مثلما أحببتُ أمه. مرّتْ الأيام والشهور، وبدأ الشعب هنا يمِلُ من قيود الوباء، ويتمرد رغم عدم تحسن الوضع وفقاً للأخبار، وخالفتْ الكثير من الأسر تلك القيود، وتوسع نشاطنا أنا وأميمة.

*****

مر عام 2020 علينا ونحن نترقب، نحاول أن نتحرك أكثر، قضينا وقتاً طويلاً معاً -أنا وأميمة والعمّ أحمد-، اتخذتْ جلساتنا شكلاً أسرياً حميماً، حدّثنا العمّ أحمد عن بداية هجرته، وسرد علينا ذكرياته وكيف كان اليمنيون المهاجرون من الأجيال السابقة (جيله) يفكرون ويحلمون، فقال:

- لم نكن نؤمن بالتعليم بعد المدرسة، لم أشجع أولادي ولا خالد على إكمال الدراسة الجامعية، والتخصص بمجال يسمح لهم بالتنافس ودخول سوق العمل، كُنّا نحن الرعيل الأول من المهاجرين نستعجل المكسب المالي، فشجعنا أولادنا على العمل فور انتهاء دراستهم في المدرسة، لم يكن لنا طموحٌ عالٍ، ولم نؤمن بقدرات أولادنا، كنّا نخشى عليهم من التنافس في بلد جمعتْ من العالم كله كوادر مؤهلة بطبعها، كوادر طموحة، جاءتْ إلى أمريكا لتحقيق أحلام كبيرة، أما فتياتنا فقد قطعنا دابر تعليمهن من وقتٍ أبكر، وأغلب رفقائي زوجوا فتياتهم في عمر صغير، وذلك بترحيلهن إلى اليمن، وبعضهم زوجوهن بشباب يمنيين يعيشون هنا، كنّا نخاف عليهم كلهم الشباب والفتيات، فحجبناهم عن وتيرة الحياة في هذه البلد، ظناً منا أننا نحميهُم.
صمتَ وابتسم بسخريةٍ لِما يجول بخاطره، وعاد يقول:

- ما النتيجة؟!عاد أبنائي إلى اليمن فراراً من أمريكا غير مؤهلين حتى على مستوى تأهُل الشباب في اليمن، يعانون الآن من الغربة في بلدهم، يعملون في وظائف بسيطة، وليس عليهم الصراع اليومي من أجل لقمة العيش -كما هو الحال هنا في أمريكا-مرتاحون أن متطلبات الحياة بسيطة، قبل أن تجرف راحتهم الحرب، وتجعلهم يدركون أن البساطة لا يجب أن تكون متطلباً.
سألتُه:
- ما أكثر ما كان يزعجك في بداية الحياة هنا؟
- ربما ما كان شائعاً بين اليمنيين آنذاك، كان هناك محاربة لبعضنا البعض، منافسة في غير محلها، فما أن ينجح أحدهم بعملٍ ما، حتى يقلده الآخرون وفي نفس المنطقة، فيتأثر عمله ويتضرر عملهم، كان التقليد سائد بيننا، شيء من الحسد، الغيرة من النجاح، لذا كان أغلبنا يفضل العمل مع الآخرين، بدلاً من تجربة العمل الخاص، عمل كثير منّا في مصانع صناعة السيارات، في الموانئ وغيرها من الأعمال الشاقة التي لا تحتاج لمؤهلات، كنّا مع غيرنا من المهاجرين وقود نهضة أمريكا.
سألته زوجته أميمة:
- ولِمَ الهجرة من البداية؟ ما الذي حفّزك على الهجرة وترك اليمن طالما لم يكن لديّك طموحٌ كبير؟
- العالم الجديد، أرض الأحلام، الهروب من روتين الحياة في اليمن، حب المغامرة، كل هذه الأشياء التي يشترك فيها عمر الشباب، تشجعتُ على الهجرة مع بعض الأصحاب، توقعنا أننا

سنتملك الأموال بسهولة وسنصبح أغنياء بين ليلة وضحاها، حلمنا بالمال ولم نطمح بالعمل. كانتْ الهجرة إلى أمريكا أفضل من الهجرة للخليج، خاصة بعد أن تعقّد باب الهجرة للخليج إبان موقف اليمن من غزو الكويت وترحيل أُسر كثيرة إلى اليمن، وفرض قيود جديدة على من تبقى منهم، وعودة الكثير من المهاجرين من تلقاء أنفسهم لصعوبة مواجهة الكراهية في دول الخليج مثل السعودية والكويت، لقد أجبرتهم سياسة بلدهم على ترك الحياة التي أسسوها لسنيين طويلة هي عصارة شبابهم أينما كانوا يعتقدون أنه وطن ثانٍ لهم، عادوا إلى اليمن يجرون أذيال الخيبة ومرارة الخسارة، عادوا إلى وطن لا يعرفونه، ولم يرحب بهم.. لذا اعتبرنا أنفسنا أفضل منهم، فنحن -على الأقل- حصلنا على الجنسية، وأصبحنا مواطنين أمريكيين وليس فقط ساكنين كما كان وضعهم في الخليج، ولكنّا على أي حال لم نستغل الفرصة التي استغلها غيرنا من المهاجرين ممن بنوا حياة تستحق ترك الوطن.

- هل أنت نادم على الهجرة؟ عادتْ أميمة تسأله.

فكر العمّ أحمد كثيراً، ثمّ قال:

- لا، لستُ نادماً على الهجرة، ولكن ربما نادم على الطريقة التي سرتُ بها. فعندما وصلتُ إلى هنا كنتُ شاباً، ولكني لم أؤهل نفسي مع أن الحياة كانتْ أبسط، والسوق مفتوح أكثر، نادم أني لم أؤهل أولادي، لم أشجعهم على الدراسة والعمل والتنافس، لم أغرس فيهم الطموح لحياة أفضل، نعم نادم على ذلك، ولكني لستُ نادماً على الهجرة.

*****

ولدتْ شيماء وأنجبتْ ابنها مازن، وبقدر سعادتها بقدر حزنها لعدم قدرتها على دعوة أمها لمعاونتها على التجربة الأولى في حياتها، تجربة الأمومة تلك الوظيفة الأزلية للمرأة، والوظيفة التي لن أحصل عليها. أبهجتني أخبار شيماء، وشعرتُ أن العالم موجود والولادات موجودة كما هي الوفيات التي تتوارد يومياً، ونتابعها أنا وأميمة والعمّ أحمد معاً على شاشة تلفازهم، حيث كنتُ قد أعتدتُ على قضاء أغلب الوقت معهما، نتعاون أنا وأميمة على تدريس باسل، وتعويضه عن توقف الدراسة.

لم يكن خبر ولادة شيماء بالخبر المبهج الوحيد، فرغم الإغلاق وتعطُل الأعمال، حصلتُ أنا على الجنسية الأمريكية، وأصبحتُ أمريكية وفقاً للقانون الأمريكي، فرحتُ دون أن أجد لها معنى ملموس، ولكني فرحتُ بالحفلة الصغيرة التي أقامتها لي أميمة في الجمعية التي صارتْ مقر جلوسنا ومكان لقاءاتنا.

هاتفتُ أمي:

- صرتُ أمريكية الجنسية يا أمي.
- ألف مبروك صفية، هذا خبر جميل في زمن قلّتْ فيه الأخبار الجميلة، ولكنك مقيمة فعلياً في أمريكا فماذا ستستفيدين منها؟
- كثير يا أمي، أولها سوف أدعوكِ، سأقدم طلب بدعوتكِ إلى هنا إني محتاجة لكِ، ماذا تقولين؟ لم ترد، ولكني سمعتُ بكاءها قبل أن تغلق الهاتف...تركتُ قليلاً من الوقت يمر وعاودتُ الاتصال.
- نعم صفية نعم، يُسعدني أن أعيش معكِ، لم يعُد لوجودي هنا معنى.
وهكذا ساعدتني منظمة دعم النساء المهاجرات، وأجريتُ أول معاملة لي بصفتي أمريكية وهي دعوة أمي. أخبروني أن عليّ الصبر والانتظار؛ فهي معاملة يمكن أن تطول وخاصة في ظل ذلك الوباء.

شعرتُ بيد أمي تربتْ على كتفي، وسمعتُ صوتها يقول هامساً:

- صفية هل نمتِ على الاريكة؟ هيا انهضي للنوم في حجرتكِ.
فتحتُ عينيّ ونفضتُ عن نفسي تعب الذكريات، رأيتُ أمي بثوب الصلاة تستعد لصلاة الفجر، ورأيتُ اللابتوب وقد اسودتْ شاشته، لقد غفوتُ في صالة الجلوس وأنا استرجع ذكرياتي لا أدري إذا ما كتبتُها أم لا، لم يعُد اللابتوب يعمل، نفذتْ منه البطارية، نهضتُ استعديتُ بدوري لصلاة الفجر وعدتُ أحاول أن أكمل نومي، ولكن النوم جافاني وعادتْ لي الذكريات وأنا مستلقية على سريري، وعادتْ الأحداث تتدفق..

كنتُ أشعر أن خالد لم يعُد يرغب بالعيش معي، كان يهرب لشقة أصدقائه، فينقطع لفترات طويلة دون أن أسمع عنه أي خبر، كنتُ أقضي وقت فراغي مع أميمة والعمّ أحمد أو مع هاتفي استمع لأغاني بلدي الذي أفتقده كثيراً، وأعيش الماضي القريب وأنا بين أهلي وصديقاتي. ذات يوم وعندما فتحتُ الأغنية أنساب صوت فؤاد الكبسي يجول في غربتي:

" مشتاق يا شوق السهول للأمطار

شوق المسافر للوطن والاحباب

مشتاق يا صنعاء والشوق قهار

مشتاق للجلسة جوار الاصحاب

والقلب يا صنعاء حزين محتار

والعود في الغربة ثقيل الاوتار

لا العزف في باله ولا الغناء طاب"

استمعتُ للأغنية شاردة إلى حيث يعيش قلبي، فكرتُ، لِمَ هاجرتُ؟ ما أوجعها من غربة، أشتاق لكل ركن في بيتنا، أشتاق لأمي وأبي وإخوتي، لجلوسنا على طاولة الغداء، اشتاق لطبخ أمي، لصوت لن يعود صوت أبي، اشتاق لسمر وجلساتنا مع الصديقات، اشتاق لقهوة القشر ولرائحة البخور في مجالسنا، ولصوت قطرات المطر على نوافذنا، واشتاق لجبالنا التي تخضّر في موسم الأمطار فتحيطنا بجمال يدخل القلب قبل العين، رائحة المطر تنفذ إلى أنفي مع كلمات الأغاني، استنشق الرائحة وأغمض عينيّ المبللة بالدموع، أعيش داخل وطن، كيف مرّ العمر في هذا الاتجاه، ما الذي حرف بوصلة حياتي إلى حيث لا يوجد وطن؟ لِمَ هاجرتُ ومن أجل ماذا؟

عاد خالد، لم أسمع صوت فتح الباب، ولكني سمعتُ صوت إغلاقه بعنف، فوثبتُ من الأريكة وسقط الهاتف على الأرض، وقبل أن التقطه كان قد أخذه وأغلق الصوت صائحاً:

- ماذا؟ هل تبكين حالكِ؟ هل تحنين لليمن؟ ألا تعلمين أي ظروف يعيشونها هذه الأيام، لقد أنقذتكِ ويجب أن تُقدري لي هذا العمل، هل تجدين حياتكِ هنا تستدعي البكاء؟
- إن الحنين للوطن لا يعني أننا نعيش حياة سيئة.
- عن نفسي لا أملك أي حنين لليمن ولا أي ذكريات، اليمن لم تعطِني شيئاً، ولم تعطِني أمريكا شيئاً، بنيتُ نفسي بنفسي لم تساندني الحياة، بل أنها بخلت عليّ بما وهبته لملايين البشر، لم تهب ليّ أسرة.
- ولكننا أسرة، ألا تعتبرنا أسرة؟
- الأسرة لا تسمى أسرة إلا بطفل، نحن زوجان نعم، ولكن ماذا بعد؟ على أي حال لا داعي للحنين، جهزي لي الطعام فقد عاد العمل، وسأغادر على سفينة الشحن.

جهزتُ الطعام وتناوله دون أن يتحدث، وعندما أكمل طعامه ذهب للحجرة ثم غادر مع حقيبة كبيرة، ولا أدري لِمَ ذهبتُ إلى حجرتنا بعد أن غادر؟ ربما لأجد تفسيراً لأخذه الحقيبة. فتحتُ دولابه، واكتشفتُ أنه أخذ تقريبا كل أغراضه - ولم يكن يأخذها كلها في سفرياته السابقة - كان الدولاب خاوياً إلا من القليل من الثياب، لا أدري لِمَ تركهما؟

مع قدوم 2021 بدأ خبر التلقيح لوباء كورونا بالانتشار، ابتهج الكثير وسارعوا لطلب التلقيح، وتشكك الكثير ورفضوا التلقيح. وبدأ الكل يتحدث عن التجارة واستغلال الوباء من أجل المكسب. رفض العمّ أحمد التلقيح، واضطررنا أنا وأميمة لأخذ التلقيح الأول واكتفينا به؛ لأن وثيقة التلقيح كانتْ تُطلب منّا عند دخول أي مكان، لكننا احتفظنا بالكمامات. واستمرتْ المظاهرات تجوب شوارع أغلب مدن أمريكا تحتج على الإغلاق وعلى التلقيح الإجباري

وعلى كل شيء، مظاهرات تشكك بالوباء وتندد بمؤامرة ضد البشرية، وتحالُف الكبار، لم أفهم الكثير، وشعرتُ أننا على أي حال لا حيلة لنا، لم تُنتج المظاهرات شيئاً ملموساً، فقط تعبير وتنفيس عمّا يخالج البشر من غضب ومحاولة للتحرر من القيود التي يؤمن الكثير أنها مبالغ فيها. وعلى أي حال فقد تحررتْ الحياة هنا في أمريكا مع بداية 2022 قبل أي دولة أخرى، وانطلقتْ أميمة لتوسيع نشاطنا أكثر في مُحاوَلةً منها لتوفير اللازم من الدخل مع ضعف مردود محل العمّ أحمد رغم إعادة فتحه يومياً.

*****

مرّ عام ونصف فقط منذ أن قدمتُ طلب دعوة أمي إلى أن حضرتْ، ولكنّه بدا كأنّه ألف عام، أمّر عام مر عليّ، عام لم أستوعب كيف مرّ، كنتُ أعيشه ولا أعيشه، عام كان مقدار الحزن فيه يفوق طاقتي وقدرتي، ولأني لا أزال هنا، لا أزال أعيش في هذا العالم، فسأحارب بكل قوتي وقوة صديقاتي، نعم عام 2022 ذلك الذي غيّر حياتي بطريقة لم أتوقعها، أنا صفية بعد 2022 غير صفية قبل 2022.

رغم أن الوباء بدأ بالانحسار أو هكذا قرر البشر، وبدأ دبيب الحياة يعود ثانية وتفاءلنا خيراً، أُصيبتْ أميمة بالمرض -الوباء- الذي اجتاح العالم، وبنوع قوي منه، فانتقلتْ إلى المشفى سريعاً ومُنعنا من زيارتها، أخذتُ باسل إلى منزلي وانتظرنا، لم يطول انتظارنا، غادرتنا أميمة سريعاً!!! غادرتني هبة الله لي، صرختُ بأعلى صوتي لِمَ؟ ومن سيبقى لباسل؟ ومن سيبقى لي؟ رحلتْ أميمة دون أن نودعها، دون أن نلقي عليها النظرة الأخيرة، وكان لموتها نهاية لحياة العمّ أحمد الذي شاخ في يوم مئة عام.

كان صعباً عليّ أنا والعمّ أحمد شرح ما حدث لباسل، وإخباره أنه لن يرى أمه بعد الآن، ولكنه كان طفلاً ذكياً، فقد أدرك من كل تلك الاحصائيات التي كانت تورد من التلفاز بشكل مستمر أن الموت قريب، ووفّر علينا كل ما كنّا نحاول قوله، وانخرط ببكاء مُرّ وسمحنا له بالبكاء، لم نطلب منه الكف عنه بل شاركناه فيه. استوعب باسل سريعاً ما حدث، ربما لأن أخبار الموت كانتْ حديث يومي، أو ربما لأن الموت أصبح خبراً نتناقله ونتناوله يومياً، ولكن شتان بين أن تُضجُ مسامعنا بأخبار الوفيات وبين أن يزورنا الموت!

أقمتُ عزاء أميمة في شقتي لمدة يومين تجنباً للازدحام، يوم اجتمعنا أنا وديما وبعض من جاراتنا وبنات شقة رقم 5، ويوم بحضور ماري صاحبة المقهى وجين صاحبة المكتبة- التي كوّنتُ معها صداقة بمرور الوقت-، وبعض من موظفات المنظمة. كنتُ أعيش حداداً مجبورة عليه، فمازلتُ غير مصدقة موت أميمة، ما زلتُ أسمع صوتها من الدرج تنادي عليّ، ما زلتُ

أحس بها تتحرك أمامي ونحن نسير في مشاويرنا، تحجرتْ الدموع في عينيّ، حاولتُ جاهدة أن أبكي على الأقل وحدي في حجرتي، ولكنّ دموعي كانتْ متصلبة، وعينيّ جافة، وقلبي يغرق بحزن لا منفذ له. مرّ أسبوع على وفاة أميمة، وجاءتْ ديما إلى شقتها، وأخذتْ كل أغراضها بطلب من العمّ أحمد، واعطتني معطف وشال وبعض الصور كذكرى لأميمة، تأملتُ الصور وتذكرتُ قولها بأن الحياة شغلتها، ولم تتوقف يوماً ما لشراء ألبوم كما كانتْ تأمل لوضع الصور القليلة التي التقطتها بهاتفها، واستطاعت في وقتاً ما طباعتها.

كنّا قد اعتدنا الأكل سوياً مع العمّ أحمد منذ مرض أميمة، وواصلنا ذلك بعد وفاتها، كنتُ أطبخ في مطبخي وأتناول الغداء في منزل أميمة مع باسل والعمّ أحمد. جلستُ معه تلبية لطلبه بعد ذهاب باسل إلى حجرته؛ فقال لي بصوت مريض يائس كأنّه يريد أن يخفف عن كاهله ما يعتبر نفسه مسؤول عنه:

- صفية لقد أخبرتني أميمة عن معاناتكِ، أعتقد أن عليّ الاعتذار لكِ.
- لا شيء يدعو للاعتذار، إنه قدري.
- لقد كان خالد قلقاً من المجتمع وتقاليده ومن الفتيات اللاتي وُلِدْنَ وعِشْنَ هنا - رغم أنه أتى إلى هنا وهو مازال طفلاً في المدرسة-؛ مرتْ السنوات ووجدتُه كتلة من العقد واليأس، فكرتُ أن فتاة من اليمن قد تساعده على بناء أسرة؛ رأيتكِ ذات يوم عند مدخل منزلكم وقد رفعتِ النقاب-أعتقد كنتِ عائدة من العمل-؛ وجدتكِ فتاة جميلة، ذكية، فرأيتُ أنكِ مناسبة لتعينيه على الحياة.
- لقد حاولتُ، منذ أول يوم حاولتُ.
- أعلم لقد أخبرتني أميمة -رحمها الله- أعلم.

سكتنا وقتاً طويلاً، وعندما نهضتُ طلب مني البقاء، وقال:

- لم أكمل حديثي بعد وهو الأهم.

حاول أن يتماسك، ثمّ أكمل:

- سوف أخضع لعملية خطيرة في القلب أجلتُها بسبب الوباء، ولكن الطبيب أخبرني أن الحالة أصبحتْ حرجة. إني كبير بالسن، وقد حذرتُ أميمة من ولادة طفل، فقالتْ ستكون مسؤولة عنه، لا نعلم الغيب يا صفية لا نعلم، رغم أني لم أعُد راغب بالحياة بعد وفاتها؛ فقد كانت قنديل الحياة في حياتي بعد وفاة أم الأولاد؛ ولكني مضطر أن أخضع للعملية إذا ليس من أجلي فمن أجل باسل، لعلّي أستطيع أن أبقى له ولو لبعض الوقت.

صمتَ فترة طويلة وكأنّ ما يريد قوله صعب القول، تأملتُه يبدو وكأنّه قد كبر عشر سنوات منذ موت أميمة، أصبح لا يمشي إلا بعكازة، نظره كأنّه ضعُف فجأة، وأصبح هزيلاً جداً وعجوزاً جداً، وعيناه مملوءة بدموع قهر وألم وقلة حيلة، ثمّ أكمل حديثه:

- سوف أطلب منكِ الاهتمام بباسل خلال هذه الفترة، كما تعلمين أنا وحيد هنا منذ أن عاد أولادي إلى اليمن، وقد بقيتُ هنا لأني اعتقدت أنه الأفضل لأميمة وباسل؛ فالوضع في اليمن صعب.
- بكل تأكيد؛ يمكن له الانتقال إلى شقتي حتى عودتك بالسلامة.

وهكذا انتقل باسل إلى شقتي وذهب العمّ أحمد لعمل العملية، ذهبنا بعد العملية لزيارته، وجدنا بعض من رفقائه يجلسون على كراسي حوله؛ وعلى ملامحهم يبدو الحزن، التعب، اليأس... لا أدري، ولكني شعرتُ بالشفقة عليهم، وشعرتُ أنهم من جيل هاجر وبقي قلبه هناك في اليمن، لم يكن للهجرة هدف واضح، ضاعتْ سنون عمرهم وهم يأملون أن يعودوا إلى اليمن، ولكن لا يعلمون متى وخاصة بعد الأحداث التي طالتْ هناك.

في اليوم التالي أيضا ذهبنا أنا وباسل لزيارته، ووجدناه بأفضل حال، ملامحه هادئة وعلى وجهه نظرة من فاز على المرض، وأخبرنا الطبيب أن العملية ناجحة جداً، إلا أن تلك الزيارة كانتْ الأخيرة؛ فبعدها بأيام رحل العمّ أحمد لاحقاً أميمة قنديل حياته، فأصبح باسل يتيم الأبوين.

تقبّل باسل وفاة أبيه كأنّه قد شعر بها، ولكن سِنه الصغير عَجَزَ عن توقُّع ما سيحدث له. حضر خالد عزاء عمّه الذي أقامه صديقه في قاعة ضمن مجمّع الحي، وعندما جاء إلى الشقة كان يبدو شخصاً آخر، حزيناً جداً مشتت الذهن أكثر من المعتاد، حائر النظرات، العمّ أحمد كان بمثابة أبيه الذي لم يعرف أباً سواه، قال لي أنه سيسافر على سفينة الشحن وقتاً طويلاً، وخرج دون أن يضيف حرفاً واحداً، أو يتحدث بخصوص باسل، أو يخبرني من أين وكيف أدبّرُ أمور معيشتي، لا شيء على الاطلاق، رأيتُه عند الظهر في اليوم التالي يخرج ماشياً باتجاه محطة الحافلة، حاملاً حقيبة بها ما تبقى من ثيابه ومرارة حياته، واكتشفتُ أنه قضى ليلته في شقة عمّه.

*****

لم يمُرّ على وفاة العمّ أحمد إلا ثلاثة أيام؛ وإذا بمسؤولة مكتب خدمات الأطفال مع شخصين آخرَين يطرقون بابي، أبلغتني ببساطة أنهم سيأخذون باسل إلى سكن رعاية الأطفال، وسيبقى فيه حتى يتواصلوا مع أشقائه، أو يتم تبنيه من قِبل أي أسرة ترغب بالتبني، وشرحتْ لي أنه لا حق لي بتربيته طالما لستُ أحد أقاربه من الدرجة الأولى، كما لمحتْ لي أني غير مؤهلة لرعايته؛ فليس لديّ مصدر دخل معروف. صُعقتُ من هذا القرار الذي لم يخطر في بالي ولم أتوقعه، شعرتُ بكارثة أكبر من موت أميمة نفسها وأكثر من موت العمّ أحمد، كيف لي أن أتخلى عن باسل وقد صار لي ابناً؟ كيف أمضي في حياتي دون وجوده معي؟ ودون أن أسمع ندائه لي "صافي"؟ كيف أتخلى عنه وقد كنتُ عزاءه الأوحد بفقدان أبويه؟! طلبتُ منهم بضعة أيام حتى أهيئ باسل، لكن القرار كان واضحاً جداً في رأسي "سوف أتبنى باسل".

تواصلتُ مع ابن العمّ أحمد الأكبر، وأخبرته بما أُستجد من موضوع شقيقه باسل، وكيف أن مكتب خدمات الأطفال سوف يأخذونه تحت رعايتهم؛ فأخبرني أنه من الصعب سفر باسل بمفرده لليمن خلال هذه الفترة، وسيحتاج لبعض الوقت لترتيب موضوع القدوم إلى أمريكا لأخذه، ولكني أخبرته أني أرغب بتبنيه، وسأسعى من أجل هذا الموضوع. وبعد حديث طويل تفهّم الأخ لرغبتي وأبلغني بأنه سيعطي الموافقة لمكتب خدمات الأطفال عندما يتواصلون معه، وقال لي إنه لا يتوقع أن أنجح بتبني باسل إلا إذا حصلتُ على عمل ودخل شهري.

وهكذا اجتمعتُ مع المقربات مني، ديما وماري صاحبة المقهى وبنات شقة رقم 5، تركتُ الحزن ورائي، وطلبتُ منهن الاصغاء لي جيداً:

- كلنا أحببنا أميمة التي كانت ملاكاً بيننا، كلنا أحببناها، ولكن الأهم من حبنا لها هو حبنا لابنها باسل.
أعاقتني دموعي وحزني وألمي، فسكتُ وسمحتُ للصمت أن يحل بيننا لدقائق وأنا أحاول أن أرتب أفكاري:

- مع وفاة العمّ أحمد سيتم تقديم باسل للتبني، هذا هو قانون البلد الذي نعيش فيه، أرغب بتبنيه، أطلب منكُنَّ جميعاً مساعدتي.
شهقتْ ديما فزعاً، وقالتْ:

- ماذا؟ لا أستطيع تخيُّل ذلك، باسل حبيبي، كيف؟ أخبرينا كيف يمكن مساعدتكِ؟ وسنقوم بكل ما نستطيع.
- أريد أن أتبنى باسل، إنه ابني ولن يكون ابن أحدٍ آخر، إنه أمانة أميمة لي، إنه قدري وأنا قدره.
سكتُ فترة أهدئ أفكاري المضطربة، ثمّ أكملتُ:

- لقد سألتُ نفسي مراراً وتكراراً لماذا أرسلني الله إلى هنا؟ ما هي الحكمة؟ لماذا تخليتُ عن حياتي في بلدي ورضختُ لهذا الحكم؟ لماذا صمدتُ هنا رغم أن والدي سألني عدة مرات فيما إذا كنتُ أرغب بالعودة؟ لماذا؟ إنه القدر أرسلني لباسل.
نظرتُ إليهن جميعاً، وقلتُ:
- يجب أن يكون لديّ عمل، دخل جيد حتى أستطيع تبنيه، ساعدوني.
دخل باسل قادماً من الغرفة، أتجه نحوي وألقى بنفسه في حضني ونظر للأخريات، وعندما وقع نظره على ديما قام من حضني وذهب يعانقها، ثم عاد إلى حضني وأخفى وجهه. إنه واعٍ لما حدث، ولكن لا يمكن لعقله أن يعيَ الأمر كما هو بالفعل، ولا يمكن لعقله أن يستوعب ماً يحدث له بشكل متعاقب. لماذا عليه أن يتركنا؟ أحترتُ كيف سأبلغه بكل هذا، لا أدري؟ ولكني

كنتُ أدعو لله أن يُلهمني العبارات الصحيحة التي يمكن أن أقولها له، وأشرح له ما خبئتْ له الحياة وهو لم يبلغ بعد العام التاسع من عمره.

كان عليّ أنا ولا أحد آخر أن أشرح له الوضع الجديد، انتقيتُ من الكلمات أخفّها؛ وقلتُ له أنه لا يستطيع البقاء معي؛ لأني لا أملك عمل الآن، شرحتُ له أن عليه الانتقال لسكن الأطفال، وأني بالتأكيد سأدبّرُ عمل وسآتي لأخذه قريبا. لم يتقبّل كلامي، وقال لي ببساطة وبراءة الأطفال أنه لا يهتم بوجود عمل لي، وسيبقى معي على أي حال، فقلتُ له:

- لا يسمحون لنا يا باسل، لن يقبلوا.
- من هم؟
- مكتب خدمات الأطفال.
- وما علاقتهم بنا؟ لِمَ يقررون نيابة عنّا؟
- هذا هو القانون الأمريكي.
- لا أريد يا صافي أن أكون أمريكي، أنا سوري أو يمني لا يهم، ولكن لا أريد أن أكون أمريكي.

وبكى؛ فبكيتُ بدوري وانهارتْ كل قوتي التي كنتُ أزعم أني سأحافظ عليها وأنا أحدّثه. تمالكتُ نفسي، وعدتُ أحدثه لِما يجب عليه تقبُّله، وأن إحدى المسؤولات سوف تحضر غدا لأخذه، وعليه أن ينصت لتعليماتي. وهكذا نمنا أو هكذا تظاهرنا، وسهرتُ الليل بطوله، بينما انتظمتْ أنفاس باسل واستغرق بالنوم.

*****

جاء الصباح كئيباً من كل النواحي، حتى الشمس لم تشرق، لا شيء يبدو طبيعياً، نهضتُ على دقات الباب، وجدتُ سيدة من مكتب خدمات الأطفال، ومعها اختصاصية اجتماعية أعرفها جيداً تعمل في منظمة دعم النساء المهاجرات. استيقظ باسل، ووجدتُه خلفي يحمل حقيبة الظهر التي جهزناها بالأمس، وقد وضع فيها ثيابه وكتبه، وبيده كيس لبعض الأغراض الأخرى، ويحمل بيديه لعبته المفضلة (دُمية على شكل رجل آلي).

وقف صامداً مبتسماً كما اتفقتُ معه، قبّلني ومسك يد الاختصاصية الاجتماعية التي يعرفها من قبل، ورحل دون أن ينظر خلفه، كأنّه فقد الأمل، كأنّه وضعني بمقام الغريبة، تركتُه دون أن يستوعب عقله لِمَ؟ نظرتُ إليه وأنا أحدثُ نفسي وأردد "سأستردك يا باسل".

كان عليّ العمل بسرعة، أخبرتني الاختصاصية الاجتماعية أنها علمتْ أن باسل سيبقى 6 شهور في مسكن الأطفال قبل أن يُتاح للتبني؛ وذلك بسبب قيود الوباء التي أوقفتْ عمليات التبني، وهذه فرصتنا الوحيدة وحظنا إذا صح تسميته حظاً.

ستة شهور.. هذا ما أملكه، ستة شهور عليّ إيجاد عمل وهذا أهم شيء يؤهلني للحصول على حق التبني، وبدأتُ رحلة البحث، شعرتُ بالقهر لأني لم أعترض على توجيهات خالد ولم أؤهل نفسي لسوق العمل، كنتُ عدتُ لعملي الذي أحبه، ولكنتُ الآن قد قطعتُ شوطاً كبيراً، شعرتُ بالقهر لأني تركتُ سنوات حياتي هنا في أمريكا لا أعمل شيئاً، وعليّ الآن تعويض ما فات من سنين في ستة أشهر.

قرأتُ شروط التبني عدة مرات حفظتُها عن ظهر قلب، عليّ إيجاد عمل وسوف يأتي مسؤول لفحص أهلية المنزل الذي سيسكن فيه باسل، لذا عليّ عند إيجاد عمل أن أحصل على منزل مناسب باسمي ويحتوي على حجرتيّ نوم، وبعدها عليّ تقديم طلب التبني إلى محكمة الأسرة، وسيكون هناك إجراءات كثيرة مثل البصمة والسجل الجنائي وغيرها.

لم يكن سوق العمل مفتوحاً بشكل واسع، ومازالتْ قيود الوباء تتحكم بكل شيء، لم يكن هناك عمل متوفر براتب يناسب شروط التبني. ومرتْ الأيام تخنقني بفشلي وتعثري بالحصول على عمل. سمحوا لي بزيارة باسل أنا وديما مرة بالشهر فقط، كان باسل واعياً لِما أحاول عمله، ولكنه كان فاقد الأمل وأخبرني بصراحة بما معناه (ألا أعطيه أملاً كاذباً)؛ حتى يستطيع تقبُل الآتي. حزنتُ وأنا أشاهده يتغير، كبر وغيّر الحزن ملامحه وسكنه اليأس واستسلم للآتي!

مرّ شهر ولم أر ملامح لأي فرصة، فكرتُ أن أعود لمجال تخصصي، ولكن مرّ أكثر من ثمان سنوات منذ أن تركتُ العمل، ثمان سنوات من آخر موقع طورته، ثمان سنوات منذ أن تم كسر حلمي... صعب أن أعود لذلك العمل، كافة الدورات تؤخذ في فترة أقلها ثلاثة أشهر، وبعدها هل سأجد عمل مباشرة؟ هل سيكون الراتب كافياً لتلبية طلبات لائحة التبني؟ لا داعي للمخاطرة. قررتُ أن أعمل بأي مجال وأياً كان نوعه؛ لا يهم - فقط يجب أن يكون الراتب قادراً على تلبية متطلبات لائحة التبني-؛ وواصلتُ البحث بينما عادتْ الحياة تدب مرة أخرى مع تخفيف القيود.

*****

فكرتُ كثيراً، بحثتُ في كل مكان طوال أيامي، وسهرتُ طوال الليالي وحدي في تلك الشقة الخاوية من نبض الحياة رغم عودة الأصوات وضجيج الجيران وروائح الطعام، كانتْ الحياة تدُب في الخارج، وحدها حياتي متوقفة على أمل، أخشى ما أخشى أن ينهار. فكرتُ كثيراً شلّني اليأس، وتذكرتُ كلام باسل ألا أعطيه أمل كاذب، وبزغتْ وسط ظلام الليل وظلام حياتي ومع صمت الجميع وقد خلدوا لنومهم فكرة وحيدة ضعيفة، ولكنها بزغتْ، فكرة مغلفة برائحة ذكرى جميلة عشتُها مع أميمة؛ كيف لم أتنبه لها من قبل؟ وتذكرتُ صوت أميمة "إنه ألذ كعك تناولتُه"، وانتظرتُ الصباح حتى أهرع إلى ديما.

- سوف أقوم بصناعة الكعك اليمني، الكثير من الكعك، كيف يمكن لكِ مساعدتي؟
ابتهجتْ ديما، وضحكتْ لأول مرة منذ وفاة أميمة؛ صاحتْ كما كانتْ أميمة تصرخ مبتهجة، وهالني أنها تشبهها- كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟، وقالتْ:

- نعم، فكرة سوف أساعدكِ، المنظمة تعطي مبلغ للمشاريع التي تقدمها أي امرأة مهاجرة إذا أظهر مشروعها مؤشرات أولية لنجاحه، نعم سأساعدكِ بكل ما يمكن عمله.
- علينا تكوين فريق، احتاج فريق عمل.
وهكذا كوّنتُ فريق مني أنا ومن ديما وماري، وفكرتُ بفتيات الشقة 5 وخاصة أنهن لم يحصلْنَ على عمل بعد، إلا مليكة الأفغانية والتي كانتْ تستعد لمغادرة الشقة، بعد أن حصلتْ على عمل بالتمريض، حيث لم تتمكن من معادلة شهاداتها كطبيبة؛ لأن المعادلة تستلزم دراسة طويلة ودخول عدة امتحانات، ولم يكن الأمر سهلاً عليها؛ فقررتْ الاكتفاء بالعمل في مجال التمريض.

رحبتْ الفتيات الثلاث (رحمة وميادة وايفا) بالمشروع، ووجدْنَ فيه طوق خلاص لهُنَّ في هذه الظروف الصعبة والتي أعاقتهن عن الحصول على عمل بمؤهلاتهن البسيطة، وحتى مليكة أبدتْ حماسها؛ وأخبرتنا أن العمل الذي حصلتْ عليه لا يقدم لها دخلاً جيداً، ولا مانع لديّها أن تقف معنا وتساعدنا. ولكني شعرتُ أنه ليس من العدل أن أشجعها على ذلك؛ طالما قد حصلتْ على عمل ضمن تخصصها حتى وإن كانتْ معونتها الآن دعماً كبيراً لنا، فقلتُ لها:

- إذا لم تعُدي ترغبين بالتمريض، هناك دورات لمدة سنة في التغذية، وهو تخصص مطلوب في المشافي والمطاعم وحتى بعض الفنادق الكبيرة، علمتُ عنه عندما كنتُ أبحث عن عمل، ولكنه لم يناسبني لضيق الوقت في الحصول على المؤهل.
وأضافتْ ديما:

- أيضا يمكن أن تأخذي دراسة لمدة أقل من سنة؛ للتأهيل كمساعدة طبية في مدارس الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، طالما لديّك خلفية علمية في الطب، إنه تخصص مطلوب جداً في مدينتنا، حتى أني قرأتُ طلب لهذا العمل في مدرسة أولادي.
صاحتْ مليكة مبتهجة، وكأنها وجدتْ ضالتها:

- نعم، إنه اقتراحٌ جيد، لقد كنتُ أحزن كثيراً عندما كان يصل لنا الأطفال الذين تضرروا من الحرب في أفغانستان؛ وقد أصابتهم إعاقات، أو الذين يولدون بإعاقات ولا يتوفر من يساعد الأهل على الاهتمام بهم؛ ولم يكن الأهل على علم كيف يهتمون بهم. نعم لقد أحببتُ هذا المجال، وسوف أسعى إليه بإذن الله.
قالتْ ديما:

- ممتاز يُمكنُكِ الحصول على دعم من المنظمة؛ لدخول دورة تأهيلية بصفتك لاجئة جديدة تُأهل نفسها، مع البقاء في عملكِ الحالي حتى تحصلي على المؤهل المطلوب.
صفق الجميع فرحة وبهجة بالشعور أن الأمل موجود والضوء يظهر في نهاية النفق، نفق اللجوء والاغتراب دون أسرة. وشعرتُ أن الأصدقاء سند، ولكن الأهم أن تكون النفس سند، فكنتُ سند نفسي؛ والصديقات حولي جمعنا الحزن وحب أميمة.

*****

اجتمعنا في شقتي وشرحتُ لهُنَّ الفكرة، أخرجتُ اللابتوب الذي أحضرتُه معي من اليمن والذي كنتُ استخدمه في فترات متقطعة، وقمنا بعمل خطة وسط نقاشات واقتراحات وأفكار جميلة، وتم توزيع الأدوار، وبدأنا بأمل أن قيود الإغلاق وقيود الحركة قد بدأتْ تأخذ طريقها بالانفراج، وبدأتْ الأعمال والمحلات وحركة البشر في الشوارع تعود لطبيعتها.

كانتْ خطتي أن أصنع الكعك اليمني، وأقوم بتوزيعه مجاناً لعدد من البيوت - كما عملتُ سابقاً مع أميمة-، أخذتْ كلّ من عضوات الفريق على عاتقها توزيع الكعك على أصدقائها وأفراد جاليتها، حتى جين صاحبة المكتبة وعدتْ بالمساعدة بتوزيع الكعك على جاليتها الكورية. وفعلاً قمتُ بعمل كميات كبيرة من الكعك، كلّفني الكثير من المال، ساعدتني فتيات الشقة 5 باستخدام مطبخهن؛ لأني احتجتُ لعدة أفران. وتم العمل وبدأتْ حركة التوزيع مع قصاصات فيها تعريف عن الكعك اليمني مع رقم هاتفي إذا ما رغبوا بالطلب. كان الهدف إثبات نجاح الفكرة؛ حتى نحصل على دعم المنظمة.

قمنا بنفس هذا العمل والجهد لمدة يومين، وكان التوزيع يتم مجاناً إلا بمن يرغب بإعطاء مقابل من تلقاء نفسه. وبدأتْ بوادر التوزيع بالظهور، وبدأتْ المكالمات تصلني طلباً للكعك اليمني، منها اعجاب بالكعك، ومنها مجاملة من أصدقاء الموزعات، ومنها حب لأميمة -لمن كان يعرف عنها-، ومنها دعم لتمكيني من تبني باسل -لمن كان يعرف عنّي-، لا يهُم ما الأسباب، ولكن النجاح بدأ يطرق الباب.

استمر عملنا وبمساعدة الفتيات وماري في خطوات التحضير، وفي التوزيع للطلبات المدفوعة مع استمرار التوزيع المجاني، وصلتْ لنا طلبات كثيرة من أصحاب جين، فاتفقتْ معي على إمداد بقالتهم -التي كانت تعمل بها بالماضي- بالكعك بشكل يومي، فأصبحتْ أول زبونة دائمة لنا.

واكتمل شهر من عملنا، وثلاثة شهور من المهلة المحددة لفتح باب التبني، وأصبحتْ الطلبات فوق جهدنا، فبدأتْ المرحلة الثانية للخطة، وقدمتُ للمنظمة طلب مساعدة، وأرفقتُ فيه بيانات

عن عدد الطلبات التي تصلنا وحجم الجهد والكلفة وضيق المكان، وشرحتُ أن من ضمن خطتنا التنويع من عمل الكعك وتوسيع نطاق التوزيع. تم مناقشة مقترحي في منظمة دعم النساء المهاجرات، وأخذتْ هذه المناقشة شهراً آخراً، حصلتُ في نهايته على دعم للمشروع، وشمل ايجار مخبز لمدة سنة، وإمدادي بثلاث آلات عجن وثلاثة أفران كبيرة ورواتب ثلاث عاملات وهذا أيضاً لمدة سنة فقط. وكان المخبز يقع على زاوية الشارع الذي يقع نهاية حينا، وبهذا تمكنّا من الظهور على عدة أحياء.

اجتمعتُ مع فريقي وقررنا أن يتم توظيف الثلاث فتيات رسمياً بعد أن كنُّ متطوعات، وخصصتُ لهن الرواتب المقدمة من المنظمة، على أن يكون عملهن شامل العمل في المخبز وفي توزيع الطلبيات من الكعك، وواصلتْ ديما وجين دعمهن كلما احتجنا لهن، أما ماري فقررتْ إعادة فتح مقهاها، ولكنها هذه المرة استأجرتْ المكان الملاصق لنا الذي من حظها وحظنا أنه كان شاغراً.

أخبرتُ أمي بكل ما حدث منذ وفاة أميمة، وحدثتُها عن قراري بتبني باسل، وكل ما وصلتُ له بخصوص مشروعي، استمعتْ لي أمي جيداً، وعندما أنهيتُ حديثي؛ قالتْ لي:

- وهل ستتمكنين يا صفية من تحمُّل هذه المسؤولية وأنتِ وحدكِ وفي بلد غريب؟
- لا أعرف يا أمي ولم أفكر بذلك، ولكني أيقنتُ أنَّ الله أرسلني إلى هنا من أجل باسل، وأعرف أنَّ هذا هو هدفي ولا شيء غيره، ولم أعُد غريبة هنا يا أمي.
- إذن توكلي على الله؛ وسوف أحاول مساعدتكِ بقدر الإمكان.

وبعد محادثتنا بأسبوع، أخبرتني أنها تمكنتْ من أخذ مبلغ جيد من إخوتي، يُعتبر جزءاً بسيطاً من ورثها من مال أبي، أو جزءاً بسيطاً من حقي في ميراثي المسلوب، أرسلتْ لي جزءاً منه، مكنني من استئجار الشقة أعلى المخبز، وكانتْ شقة جديدة ونظيفة، تحتوي على صالة ومطبخ ملحق بالصالة وحمامين وغرفتين، إحداهما واسعة خصصتُها لي ولأمي -عندما تأتي- والأخرى أصغر منها، جهزتُها لباسل -عندما يعود- وصبغتُها باللون الأزرق المفضّل لديّه، وأثثتُها واشتريتُ ملايات سريره مرسوماً فيها الشخصيات الكرتونية المفضّلة لديّه، وكان للشقة شُرفة مطلة على منتزه يقع على طرفه مدرسة، خططتُ أن أسجّله فيها؛ حتى يبدأ حياة جديدة بعيدة عن كل ذكريات الماضي.

بدأ العمل بوتيرة عالية، وبدأتْ إيرادات المخبز ترتفع، تعرفتُ خلال هذا العمل الدؤوب على الأسر اليمنية في حينا والأحياء المجاورة، والتي حجبتها عني تعليمات وقيود خالد، وجدتُ الترحيب والتعاون؛ فشعرتُ بالامتنان لكل ما يحدث لي، كما تعرفتُ على شاب يمني يدعى (عمّار)، وكان يعمل بمهنة استيراد منتجات يمنية وبيعها؛ فتعاملتُ معه لأحصل على الكثير

من المنتجات اليمنية؛ وساعدني بتخفيض السعر، فاشتريتُ منه قهوة القشر اليمنية والسمن البلدي والزبيب واللوز وكذلك التُّوُر اليمنية الشهيرة لوضع الكعك عليها، وغيرها من المنتوجات ممّا فتح لي أفكار أكثر وأكثر؛ كما حصلتُ منه على بعض الأزياء اليمنية والتي أوصيتُ أمي أيضاً على عدد منها.

كان الشاب اليمني عمار شاباً طموحاً، عرفتُ منه أنه بالأصل تخرّج من كلية الهندسة، ويعمل مهندساً في شركة هندسية، ولكنه يساعد أباه في المتجر. وقد تعرفتُ عليه أكثر عندما جاء لتسليمنا الطلبات، فتبادلنا الأحاديث وحدثني عن وضع اليمنيين الأمريكيين حديثاً مطولاً؛ فقال:

- أغلب اليمنيين هنا يجدون صعوبة في التأقلم والاندماج مع المجتمع والثقافة الأمريكية، وبخاصة المهاجرين الأوائل، فأغلبهم من أصل ريفي وغالباً ما يفخر الريفي كيمني أصيل بثقافته المحافظة وموروثه الجميل، ويتعذر عليه التخلي عنها بسهولة أو التكيُّف مع ثقافة أخرى يرى بأنها تتصادم مع ثقافته.

سكت ينتقي كلماته، ثمّ قال:

- بعض أبناء الجالية اليمنية يجدون صعوبة في التخلي عن بعض العادات والسلوكيات التي اكتسبوها من اليمن، ومن هذه العادات عادة مضغ القات، والتي جرّمها القانون الأمريكي ومع ذلك يخاطر اليمنيون بتناولها معرضين أنفسهم للخطر.

ثم ضحك، وقال:

- مع الأسف، رغم أني لم أعش في اليمن إلا أني اعتدتُ مضغ القات مع أصدقائي وأحياناً مع أبي، ولكن في المناسبات فقط مثل الأعياد أو الأعراس، ولكن البعض من أصحابي يتناولونه يوماً في الأسبوع. الجالية اليمنية في الواقع بيئة مصغرة للداخل اليمني؛ لذلك من الطبيعي أن نرى نفس المشاكل التي تواجه اليمنيين في الداخل تواجههم هنا، وهي تضييع الوقت في هذه الجلسات، وعدم موافقة بعض الشباب على الأعمال التي يطول فيها الدوام حتى وإن كانتْ براتب أعلى.

- وبما تختلف أنت أو جيلك عن جيل أبيك؟

سكتَ مفكراً قليلاً، ثمّ قال لي:

- ربما المهارات، فالكثير من جيلنا اتجه للدراسة الجامعية، بينما افتقر جيل أبي إلى المهارات الضرورية التي تساعدهم على إدارة أعمالهم وتطويرها ونقلها إلى المستوى التالي؛ لذا أقوم بمساعدة أبي في هذا الجانب، مع الأسف أن الجهات الحكومية هنا لم تبذل أي جهود لتنمية قدرات المهاجر اليمني وربطه بوطنه الجديد أمريكا، لذا لم يحظوا بتوسع في أعمالهم وتجارتهم، ولكن جيلنا اكتسب بعض من هذه المهارات، وتمكنتُ أنا من توسيع نشاط محل أبي، كما بدأنا بالعمل في مهن لم يكن اليمنيون من جيل أبي يستطيعون التنافس فيها.

- جميل أن يكون هناك تغيير.
- نعم، ولكن هل تعلمين ما هي المشكلة؟
نظرتُ إليه مستفسرة؛ فعاد للحديث:

- مهما طال غياب اليمني عن بلده، فإنه يعمل ويكدح والحنين لا يكاد يبارحه شوقاً ولهفةً كي يحصل في الآخر على فرصة للعودة للوطن الأم؛ ولذا فهم لا يهتمون كثيراً ببناء أنفسهم والاندماج ثقافياً واجتماعياً والتحوّل إلى أدوات فاعلة داخل المجتمع الأمريكي، يعتبرون حياتهم هنا مؤقتة، - مع الأسف- لم يستطيعوا اعتبار أنفسهم أمريكيين، ولا أدري لِمَ هاجروا طالما العودة هي الحلم والهدف؟
وأكمل قائلاً:

- أود أن أغيّر هذا الهدف، وأسعى لبناء حياة هنا وأعيشها دون انتظار العودة للوطن كهدف، ربما أرغب بالعودة للوطن كزيارة بعد وقتٍ طويل من الاستقرار، ولكن لا أريد أن أجعله الهدف، لا أريد أن أقضي حياتي هنا فقط لجمع المال الذي يُمكنني من العودة في نهاية عمري لليمن.
أنهى عمّار حديثه، وغادر مودّعاً لي وشاكراً إتاحة الفرصة له للتحدث والمشاركة بما يفكر ويحلم به جيله من اليمنيين المولودين في أمريكا. وعُدتُ أفكر في كلامه وفي واقعي وماذا أنوي عمله؟ وإلى أين سيقودني؟ ما مصيري؟ هل أمريكا وطن جديد يجب أن أقبل به وأحبه؟ هل اليمن أصبح وطن زيارة؟ هل سأظل أحِنُ للعودة؟ ماذا سأعمل عندما أعود؟ هل سأبحث عن قريباتي، صديقاتي وأعود لوصل ما قطعه الزمن؟ لا أدري؟ لقد بعثرتْ الحرب الكثير من أهلي في بقاع العالم، وكذلك صديقاتي فأغلبهن تركْنَّ الوطن مع أزواجهن أو بمفردهن، مع الأسف لم يعُد هو الوطن! ولكن الذي أدركه أني الآن هنا، وسأبقى هنا، وسأعمل هنا، وسيكون لي وطن.

*****

وجاء اليوم الموعود ورفعنا اللافتة على مخبزنا ومقهى ماري -فقد طلبتْ ذلك- تحت اسم واحد "Omaima Bakery and Café" وكانت اللافتة (باللون الوردي) لون أميمة المفضل، والكتابة بلوني أنا المفضل (اللون الأحمر الداكن). وخصصنا ركناً في مقهى ماري أحطنا جداره بصور عن اليمن، وخصصناه لتقديم الكعك اليمني مع قهوة القشر، وقدمنا أيضاً الزبيب واللوز اليمني، ووظفتُ أحد الشباب اليمنيين بالساعة للخدمة في هذا الركن، فكان دوامه في المساء ثلاث ساعات يومياً؛ وطلبتُ منه ارتداء الزي اليمني وقت دوامه. أُعجبتْ ماري بمذاق قهوة القشر والتي نعُد منها عدة أنواع، فسألتْ - وهي تستحسن مذاقها- عن مكوناتها، فقلتُ لها:

- قهوة القشر قهوة معروفة في اليمن، ويشربها الكثير بطرق مختلفة، وهي عبارة عن قِشر حبوب البن المعروف يتم فصله عن بذور القهوة، وتعتبر قهوة القشر تقليد يمني عمره أكثر من آلاف السنين، ولا يحلو تجمّعاً جيداً للأهل والأصدقاء، نساءً ورجالاً إلا إذا كان حاضراً على موائد الضيافة.
- رائع، وكيف يتم تحضيرها؟
- تُوضع قشور القهوة في الماء لتغلي على نار خفيفة، ثم يُضاف إليه بعض الزنجبيل وأحياناً القرفة، ويُشرب مع إضافة السكر، وأحياناً بدونه.
- ولكني أرى أنها تُعد بأكثر من طريقة كما لاحظتُ هنا في المقهى.
- بالفعل، نحن نعمل القهوة البيضانية وهي القهوة التي يُضاف لها السمسم والهيل والقرفة، وتسمى بالبيضانية نتيجة للونها الأبيض الذي يمنحه لها إضافة الحليب المركز.

******

وأخيراً وصلتْ أمي، وكان هذا هو أروع حدث منذ أن غادرتُ اليمن، جاءتْ أمي وجلبتْ لي معها الأمان والدفء والحب، وحملتْ لي معها مبلغاً من المال، ذلك المبلغ الذي استطاعتْ الحصول عليه بعدما شرحتْ لإخوتي وضعي وظروفي وغياب خالد؛ فلم يترددوا عن تقديمه، وحصلتُ على نصيبي فوضعتُه في البنك؛ وشعرتُ بنبض قلبي ينتظم بعد عامٍ من التوتر والقلق والفزع، عام من الخوف والعمل والأمل.

سُعِدتُ بها كثيراً، وكانتْ أمي متحمسة لنُبل ما أعمل، أحبتْ أميمة من حديثي عنها، أخذتُها معي لسكن الأطفال وعرّفتُها على باسل، كما شجعتُها أن تعيش التجربة الجديدة في حياتها وألا تهدر أيامها داخل أربعة جدران، فبدأتْ تحضر اجتماعاتنا وتشاركنا الأفكار والمقترحات، وهكذا مرتْ الأيام، ننتظر تحقيق الغاية.

قالتْ لي أمي ذات أمسية سهرنا فيها نتحدث عن شؤوننا:

- أود أن أخبركِ يا صفية، لقد شعر أبوك بالندم؛ لأنه لم يسأل عن خالد بما فيه الكفاية، واكتفى بما قاله عمّه بأنه شاب حسن السلوك، ويعمل ولديّه شقة.
- هذا صحيح يا أمي لم يكذب العمّ أحمد.
- ولكنه كان يعرف ولم يقل، كان يعلم بظروف خالد النفسية، لم يقل.
- أمي كل ما يحدث مُقَدَّر لسبب، لا يخالجني اليوم أي ندم لما مررتُ به في حياتي، ولا أُحمّل أبي المسؤولية ولا العمّ أحمد، كلاهما عمل ما ظن أنه لصالحي، لا أحد أضمر سوء النية يا أمي.

- نعم، لا مهرب مما هو مقدَّر، والخير فيما يختاره الله.
تذكرتُ أميمة، ورديتُ:

- نعم الخير فيما يختاره الله.

*****

شاركتُ شيماء أخباري وشاركتْني أخبارها؛ إذ اجتازتْ الامتحان وأصبحتْ طبيبة يمنية كندية رسمياً، وحدثتُها عن الأسر اليمنية التي بدأتُ أتعرف عليها؛ وقلتُ لها:

- إنهم يعيشون اليمن في أمريكا، أغلب النساء لا تعمل وأغلب الرجال يتعاطون القات يومياً، كثير من الشابات يتم إرسالهن لليمن للزواج، ومنهُن من تعمل ضمن نطاق ضيق خاصّة الأجيال السابقة، الآن هناك كثير من التغيير، وبدأ الشباب يأخذون نصيبهم من الحياة في أمريكا، ويبنون وطن لهم ولأولادهم، عكس أجيال المهاجرين السابقين.
ردتْ شيماء:

- حتى هنا في كندا، أجد الكل يحاول العمل والمنافسة، الكثير من الشباب هنا يعملون في وظائف تنافسية، وكذلك الفتيات يعملْنَ في وظائف مختلفة.
سكتتْ قليلاً، ثمّ قالتْ:

- نعم- مع الأسف- تناول القات موجود هنا أيضاً، ولكن -الحمد لله- ليس كلهم، وزوجي ليس ضمنهم.
كذلك كنتُ على تواصل دائم مع سمر، التي رحلتْ مع زوجها إلى السعودية حيث حصل على عمل بإحدى الشركات، واقتنعتْ بالبقاء في البيت مع ثلاثة أطفال، وانعدام إمكانية عملها في ظل قوانين العمل في السعودية. أخبرتني بكثيرٍ من الأسى أنها لم تتوقع أن تترك اليمن، ولم تتوقع أن يهاجروا تاركين كل شيء خلفهما، ولكن الظروف أجبرتهم على الاغتراب وبدء صفحة جديدة في بلدٍ جديد. وقالتْ لي:

- من يصدق أننا حصلنا على نفس المصير- أقصد الغربة والهجرة! ما كانتْ تمُرّ بخيالنا في الماضي، لا أنا ولا أنتِ، عندما هاجرتِ حزنتُ عليكِ كثيراً، توقعتُ أنكِ ستعودين قريباً، ستُقنعين خالد وستعودون، ما كنتُ أتوقع أن ألحق أنا بقافلة المهاجرين، ما كنتُ أتخيّل أن أهاجر أنا أيضاً وأترك اليمن.
- هكذا الحياة في زمن الحروب تأتي بما لا نتوقعه ولم يكن بالحسبان.
- على الأقل تحركتْ حياتكِ، مبارك لكِ العمل.

- وأنتِ لا تقنعي بالجلوس في البيت، فهو يشلُّ العقل والقلب والجسم، ولا تعرفين ماذا يخبئ لكِ القدر. هل تعلمين يا سمر؛ ليس صعباً أن تعمل المرأة؛ فقد عملنا أنا وأنتِ والكثير من النساء في بلادنا، ولكن الصعب هو العودة للعمل بعد سنوات من المكوث بالبيت، أنه يخرجنا عن التأهُل ويجلب الإحساس بالحاجة، ويُشعّرنا عندما نخرج للبحث عن عمل كأنّ على جبيننا كلمة "محتاجة"، فلا تتركي العمل.
- ولكن الفرص معدومة هنا.
- لقد تخرجنا من تخصص جيد، فقدتُه تماماً فلا تفقديه طالما عملتِ به سنوات أكثر مني، وطالما ما زال حياً في عقلكِ.
فهمتْ سمر النصيحة واستوعبتها، وكأنّها قد فكرتْ طويلاً كيف تتجاوز هذا الوضع، وتعود للعمل مع كل هذه المسؤوليات. لم يكن صعب عليها أن تقودها تلك الفكرة إلى فكرة أفضل؛ فهي ذكية ومثابرة، ولكنها اعتقدتْ أن وضعها مفروض عليها وأنه قد أصبح قدرها، وأنها ضحية كما كنتُ أنا أعتقد عن نفسي.

تواصلتْ معي بعد فترة، وقالتْ لي وهي سعيدة:

- شكراً على نصيحتكِ صفية، لقد وجدتُ مخرجاً وحصلتُ على عمل.
- ألف مبارك، وكيف حدث ذلك؟
- سأقوم بتصميم مواقع من الباطن.
استغربتُ لهذا التعبير "من الباطن" الذي يدل على شيء خطأ، وسألتُها:

- كيف من الباطن؟
- لقد حصلتُ على فرصة عمل، أصمم مواقع تحت اسم رجل سعودي يعرفه زوجي، ويعطيني جزء مما يحصل عليه من الزبون.
- ولكن هذا ظلم.
- صفية لقد قبلنا الظلم في بلدنا، فلِمَ لا نقبل الظلم ونحن أغراب؟!
سكتتْ، وتمنيتُ لها التوفيق، ولكني حزنتُ وظل عقلي مشغول وظل الموضوع يتأرجح في بالي، لم أقتنع ولم أقبل استمرار الظلم دون محاربة؛ ولكن لم يحن الوقت بعد.

*****

جاءتْ ديما إلى شقتي الجديدة وعلى ملامحها الخوف، وقالتْ لي:

- صفية لقد نسينا خالد.
- ولِمَ علينا تذكُره؟

- لقد رأيتُه بالحي، وسألني عنكِ.
- ماذا؟
- صفية يمكن لخالد أن يدمّر كل ما عملناه، لقد أبلغني المحامي الموكّل بموضوع التبني أنه سيم التأكد من جميع من يفترض أنهم يسكنون في المنزل ومنهم زوجكِ، وسيتم مقابلته، وقد يُسبب لنا مشكلة.

فزعتُ، وإن كنتُ أشعر أني اليوم قادرة على مقاومته، ولكني لا أريد إضافة صراعاً جديداً لحياتي. واصلتْ ديما حديثها أو تحذيرها:

- صفية لا تستهيني بخالد، سوف يثور على عملكِ وعلى موضوع التبني وقد يعرقله تماماً.
- والحل؟
- ارفعي دعوة طلاق، لا تنسي إذا أثار خالد أي مشاكل؛ فقد يجد مكتب خدمات الأطفال أن حياتكِ العائلية غير مستقرة وغير آمنة لباسل.

هالني الموضوع مع أنه قد أصبح أمراً مفروغاً منه، فقد انفصلنا فعلياً، لم أعُد أعلم أين هو؛ ولا يعلم عنّي شيئاً، ولكن تظل كلمة "طلاق" مفزعة، يظل لقب "مطلقة" لعنة في عالمنا وعادتنا وتقاليدنا، تباً لها من عادات وتقاليد سنّها البشر وفقا لأهوائهم، حجبتْ الحياة عن الكثيرات فقط خوفاً من هذه الكلمة وما يصاحبها من شروط وتعليمات ونظرة قاسية، ولكن ليس هنا، لن أدع العادات والتقاليد تقيدني حتى هنا.

وهكذا عُدتُ أتجهز لأخوض صراعاً جديداً، وكلتُ نفس المحامي الذي عرّفتني عليه ديما منذ فترة؛ لمتابعة عملية التبني بشكل صحيح، وهو محامي في قضايا الاسرة، عراقي الأصل ولكنه مقيم في أمريكا منذ أكثر من عشرين عاماً. قررتُ رفع دعوى الطلاق، وحضّرتُ تبريراتي وهي عدم تواجده لفترة طويلة دون إعلامي عن مكان تواجده، وعدم إعالتي وفقاً لإمكانيته، إضافة لعدم رغبتي بالعيش معه بعد الآن.

تواصلتُ مع خالد، واتفقنا على الالتقاء في الحديقة خلف العمارة التي كنّا نسكن فيها، وصلتُ حسب الموعد، كان جالساً، لم يتغير نفس القلق في عينيه، ونفس اللامبالاة على ملامحه، والسيجارة في يده كالمعتاد، ولكنه نظر إليّ بدهشة، استغرب صفية الجديدة، بملابسي المختلفة وملامحي الجديدة! كنتُ ارتدي البنطلون والقميص ومن فوقه معطف طويل يصل إلى ركبتيّ مع حجابي الأنيق والملون، وكان هذا نمط لباسي الذي اعتمدته منذ أن بدأتُ فكرة المشروع. جلستُ بجانبه، مرّ وقت وكلانا صامت، لا أدري بما يفكر، ولكني كنتُ أفكر بباسل، وكيف يمكن أن تسير الأمور.

رمقني بنظرة جامدة، وقال:

- كنتُ أحلم أن يكون لي عائلة أعيش لها ومعها، لم أكن أريد أكثر من ذلك.
- عائلة!! إذن لماذا تركتني؛ وكنتُ عائلتك أحلم نفس حلمك أن نبني معاً عائلة؟
نظر إليّ بسخرية وضحك قائلاً:

- وهل كنتِ عائلتي!!؟ أين الطفل إذن؟
- هذه مشيئة الله، ولكن الفتاة عندما تتزوج تعتبر زوجها عائلتها حتى وإن لم يرزقها الله بطفل.
- إنكِ امرأة متحجّرة لا تملك مشاعر دافئة، لم أستطع أن أفهمكِ.
نظرتُ إليه بدهشة، وسألتُ:

- وهل سمحتَ لي أن أظهر مشاعري!؟ لم تُدخلني حياتك، أبقيتني خارج أحلامك وهمومك، لماذا؟ ما هو الشيء الذي لم يعجبك بي؟ تحدث.. إني أصغي إليك، ومستعدة لسماع كل ما تريد أن تقوله.
- لقد كنتِ غريبة عنّي منذ أن تعرفتُ عليكِ في الخطبة الرسمية، وفي شهرنا الأول لم أشعر أنكِ قريبة مني؛ لذا ربما لم أسمح لكِ بالاقتراب مني كثيراً. لقد أنهيتِ الجامعة، عملتِ في شركة، بينما أنا عامل على سفينة شحن، أكملتُ مدرستي بصعوبة، حتى حديثكِ في بداية حياتنا كان مختلفاً عمّا أنا معتاد لسماعه، شعرتُ أنكِ غريبة عنّي تنتمين لعالم آخر. فكرتُ كثيراً يومها، ولم أملك الجرأة لإنهاء الزواج منذ البداية وتحريركِ من هذا الارتباط، ولكن عندما بدأنا حياتنا هنا، لم أجدكِ متعالية كما توقعتُ، لم تتذمري من وضعي، ولكني كنتُ أشعر أنكِ غريبة عن عالمي.
شملنا صمتٌ طويل، ودخان سجائره يحرق عينيّ، وشعرتُ بالدموع تترقرق في عينيّ، ثمّ أخذتْ طريقها للخارج، لم أمسحها وذقتُ ملوحة طعمها في فمي، ولم أدرِ ماذا أقول!

رمقني بطرف عينيه، ثم قال بصوت هادئ وكأنّه شخصٌ آخر:

- ربما لا ذنب لكِ صفية، ربما أنا من يعاني الغربة، ربما أنا غريب حتى عن ذاتي.
- الزوج هو من يرسم ملامح الحياة الزوجية يا خالد، إن سمح للسعادة والبهجة بالدخول لحياتهم، سعُدتْ الزوجة وزادتْ الحياة بهجة، وإن أظلم الحياة، ذبلتْ الزوجة وذبلتْ معها أحلامها.
- وهل أظلمتُ حياتكِ؟
- حياتنا.
- لم أعرف حياة غير تلك التي عشتُها، فكيف أعطي شيء لا أملكه، ثم نظر إليّ بتمعنٍ وأكمل:
- ولكنكِ وجدتِ حياتكِ وبنيتِ أحلامكِ.
- ليست أحلام؛ إنها واجب تجاه صديقتي أميمة والعمّ أحمد... على أي حال دعنا نضع نهاية لعلاقتنا، أريد الطلاق، وسأرفع دعوة لهذا الطلب.
- هكذا ببساطة، تريدين الطلاق والانطلاق في حياتكِ. وعاد يدقق فيّ مع ابتسامة ساخرة، وقال:

- لقد خسرتُ الكثير، وأحضرتكِ إلى هنا من أجل أن نبني أسرة لا من أجل أن تنطلقي دون قيود، وتتبرجي في ملبسكِ وفي عملكِ.
- سوف يتم قبول طلاقي، وأنت تعلم حق العلم أن من حقي طلب الطلاق.
- لِمَ؟؟ لأني غادرتُ أعمل وأشقى من أجلكِ، لم أتركْكِ في الشارع، لقد كنتِ في شقة، مستورة آمنة، ما هي المشكلة؟ لماذا تركتِ الشقة؟
- وهل الشقة كافية حتى أجد ما آكل؟ كيف أسد جوعي؟ كيف ألبي متطلبات الحياة الأساسية؟ أين كنتَ؟
- وما موضوع باسل؟ لِمَ لا تتركينه حتى يحصل على عائلة أفضل؟ هل ستستطيعين أنتِ تربيته؟
- نعم، بدون شك.
- لم يهب لكِ الله ولد، والآن تُصرين على امتلاك طفل.
- هذا شأني أنا فقط.
- لم أعُد أرغب بالبقاء معكِ بعد اليوم، ولكن لن أطلقكِ، ولن أعيلكِ.
ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة خبيثة وقد تلبَسَ شخصيته الأصلية:

- لقد سمعتُ أنكِ انتقلتِ إلى شقة جديد، مبارك، مع من تسكنين؟
صعقتُ لتلميحاته القذرة؛ وصرختُ:

- هل تريد حقاً معرفة مع من أسكن؟ مع أمي، لقد تركتني أنت دون أن تهتم بما يمكن أن يحل بي في بلد غريب، مع أمي يا خالد، جاءت لنجدتي؛ حتى لا أبقى وحدي، هل تود مقابلتها؟
- لا.
قالها بفزع، ونهض وأسرع بخطواته تاركاً لي في حيرة جديدة وخوف أن أخسر ما بنيته وجهزته من أجل الحصول على حق تبني باسل. لم أتوقع منه الاعتراض على الطلاق، فما كان بيننا مؤخراً إلا انفصال، فلِمَ يعترض؟

هاتفتُ ديما لتأتي إليّ حيث قبعتُ عاجزة عن التفكير بعد ذهابه، جاءتْ سريعاً وجلستْ بجانبي، كنتُ قد أطلقت لدموعي العنان، ودخلتُ بنوبة بكاء حارقة. لم تتكلم ديما ولم تواسيني، كأنّها شعرتْ أن هذه الدموع محبوسة منذ أن توفتْ أميمة ومن الأفضل أن أسمح لها بالتحرر، وعندما هدأتُ قليلاً قلتُ لها:

- خالد مشتت التفكير، اعتذر وتهجم في نفس الجلسة، لا يرغب بالبقاء معي ولا يسمح لي بالرحيل، يُحمّلني مسؤولية فشل حياتنا تارة، ويرجعها لنفسه تارة أخرى، لقد جمّد حياتي منذ أن تزوجتُه وكنتُ لا أزال في اليمن، وأوقف حياتي هنا في أمريكا، لا أريد أن يحطم ما أسعى له، لن أتحمّل أن أخسر باسل بسبب تعنته.

- لا يهم الآن من السبب، لكن يجب أن تتوصلوا لاتفاق يا صفية، بأي طريقة، إن الوقت يمُر.
- سأحاول، سأجد طريقة.
- لا أمل بتبني باسل إلا بخروج خالد من حياتكِ، ورغم أن الحصول على الطلاق قد يتأخر، ولكن المهم ألا يُحدث خالد مشكلة ويعيق عملية التبني.

أخبرتني الاختصاصية الاجتماعية أن إغلاق باب التبني المؤقت قد شارف على الانتهاء، وأن الأسر الراغبة بالتبني بدأتْ بالاطلاع على ملفات الأطفال. فزعتُ أن تتدمّر كل جهودي بسبب رجلٍ كخالد لا يدري ما يريد!

كنتُ أقصّ لأمي كل أحداث يومي، فحكيتُ لها عمّا دار بيني وبين خالد وعن رأي ديما، فقالتْ لي:

- صفية؛ قال لكِ خالد أنه خسر من أجل إحضاركِ إلى هنا. فهل فهمتِ أين همّه؟
- لا، لم أفهم عن أي خسارة يتحدث، فقد قدّم مبلغ زهيد كمهر، وجهزتُ نفسي من مالي الخاص، وقدّم لي أبي تكلفة الحفلة والتذاكر ومبلغ أخذته معي، ماذا خسر؟
- المهر زهيد من وجهة نظركِ.
- وما الحل؟
- اعطيه المهر.
- ماذا؟ أنا أعطيه نقود! مقابل ماذا؟ وقد تركني وحيدة مدة طويلة، ولولا أميمة لضعتُ في هذه البلد.
- اعطية الألف دولار، اسمعي نصيحتي، ووفري تعبكِ واشتري راحتكِ.

نفذتُ نصيحة أمي دون تردد، وطلبتُ من خالد أن نلتقي في نفس المكان بعد أن سحبتُ ألف دولار من حسابي الذي أودعتُ فيه المبلغ الذي أحضرته أمي، وقلتُ له عندما جلسنا وفقاً لنصيحة أمي بعدم استفزازه:

- هذا المبلغ الذي خسرته من أجل إحضاري إلى هنا، نعم إني أُقدّر يا خالد ذلك، وأرغب بتعويضك شريطة أن يتم الطلاق بهدوء.
- لقد تواصل معي ابن عمّي أحمد، وأبلغني أنهم يفضلون بقاء باسل معكِ، وأنا لا أجد نفسي ضمن هذه الصورة العائلية الجديدة، وقد اتفقتُ معه أن أعمل على سيارته الأجرة التي ما زالتْ باقية ولم يتمكن من بيعها؛ لذا سأغادر الولاية، لا أريد منكِ أي مال.
- أتمنى أن ترتاح في عملك الجديد، واعتبر هذا المبلغ بمثابة مباركة على حياتك الجديدة، ومشاركة مني لها.

نظر إليّ بتمعن، وقال:

- أعتذر يا صفية، سأقبل هذه النقود؛ لأني محتاج لها ولن أعترض طريقكِ، وأتمنى أن تتوفقي بإبقاء ابن عمّي معكِ.

مددتُ يدي له بالمبلغ، أخذه بتردد ولم ينظر إليّ، أشعل سيجارته ونفث دخانها في الهواء، ثمّ سعل بشدة قبل أن يتركني ويغادر، وكان هذا آخر عهدي بخالد. شعرتُ بحزن شديد وأنا أشاهده يغادر، أحسستُ بألم، وتفكرتُ ماذا لو كان شخصاً طبيعياً، لا يحمل كل هذه العقد في داخله؟ لربما استطعنا أن نسعى معاً ولجعلنا من باسل ابناً لنا، أليس هذا ما كان ينقص حياتنا؟ لماذا لم يرحب بالفكرة؟ ولكن هل كنتُ أتمنى أن يبقى؟ لا أدري! ربما لو أنه كان أكثر انفتاحاً للحياة، لتمكنّا من تكوين العائلة التي يبحث عنها. هذا قدري وهذا نصيبي من غربتي، وقد قبلتُ به ولا أتمنى إلا أن يُيسر الله لي طريقي ويبلغني ما أتمناه. لا أدري كم ستأخذ إجراءات الطلاق، ولكن لا يهُم، فلن يُحدِث خالد أي مشاكل تعترض طريقي، وقد طمأنني المحامي أن كافة شروط التبني متوفرة لديّ بالإضافة إلى رغبة باسل بالبقاء معي، وموافقة أخويه إذا لبيتُ شروط التبني. حمدتُ الله أن ديما تنبهتْ لموضوع خالد، وأني سمعتُ نصيحة أمي وأن الله يسر لي أمري.

(4)

أخيراً حان الوقت، وفُتح باب التبني، قدمتُ طلب التبني، أبلغني المحامي الذي يتولى قضية الطلاق وقضية التبني، أن الأولوية لمن عاش معهم الطفل اثني عشر شهراً متوالية وهذا ينطبق عليّ، إلى جانب معرفتي به في حياة والديه. قمتُ بعمل الإجراءات المطلوبة مثل البصمة والفحص الأمني وغيرها، وتمتْ الإجراءات بشكل سلس، وحضر مسؤولون من المحكمة لمعاينة الشقة التي سيسكن فيها باسل، وبعدها بفترة قصيرة أخذتُ الموافقة دون أية عراقيل. أخيراً ذهبتُ مع ديما لسكن الأطفال ليس للزيارة كما اعتدنا خلال تلك الشهور، ولكن من أجل استرجاع باسل. لم يصدق باسل أنه سيعود للعيش معي، وجدتُ الفرحة على وجهه وكانتْ أكبر سعادة لي، أخيراً استعدتْ باسل ابن أميمة، وأخيراً عاد لي.

أخذتُه إلى شقتنا الجديدة، وعرّفتُه على حجرته الجديدة وعلى مدرسته القريبة، وكنتُ قد اشتريتُ له عجلة -كما كان يتمنى دائما- ليتمكن من الذهاب والعودة بمفرده إذا كان الجو مناسباً، ولِمَ لا؟! وقد بلغ العاشرة من عمره، وقريباً سنحتفل بعيد ميلاده.

لم يُشكِل لي تبني باسل أي قلق- نتيجة عدم وجود خبرة سابقة لديّ في تربية الأطفال-؛ فقد عشتُ معه ومع أمه ما يقارب الخمس سنوات وأخذتُ حيّزاً من الاهتمام به، وكنتُ على دراية بما يحب وما يكره وما يفضل. هيأتُ نفسي لمعرفة متطلبات المرحلة القادمة في عمره (المراهقة)، وما تضُج البيئة المحيطة به من مفاهيم كثيرة ومتداخلة -أمريكية ويمنية وسورية- ، كنتُ آمل أن أتعلم كما كانتْ أمه ستتعلم متطلبات كل مرحلة، وأعالجها كما كانتْ أمه ستعالجها بكثيرٍ من التفهُم والوعي. تنفستُ الصعداء، لقد وضعتُ الهدف وسعيتُ له وحققتُه، وعاد لي باسل، ولكن هدفي الجديد كان استمرار نجاح المخبز وتطويره حتى أستطيع أن أعول نفسي وأمي وباسل.

كنتُ أخبر سمر وشيماء عن كل شيء يتعلق بأميمة وباسل؛ وعن جهودي لاسترداده؛ وشاركتُهن فرحتي بعودته وأرسلتُ لهن صور لي معه، وأصرتْ شيماء على إرسال هدية له؛ فأعطيتُها عنواني وطلبتُ منها ألا تكلف نفسها كثيراً.

*****

تواصلتْ معي إحدى الفتيات اليمنيات واسمها (أمل)، وأعربتْ عن رغبتها بالتطوع للعمل معنا، وهي طالبة في المدرسة، عليها إنهاء عدد من ساعات تطوع مطلوبة منها قبل التخرج من المدرسة. رحبتُ بها ودعوتُها للمقهى للتعرُّف عليها؛ فحضرتْ وعرّفتني على نفسها؛ إذ هي من مواليد أمريكا وأصلها يمني، لديّها ثلاثة إخوة وأخت أكبر منها، تزوجتْ أختها في سنٍ

صغير، وعادتْ إلى اليمن قبل أكثر من عشر سنوات؛ ولكنها وصلتْ قبل أسابيع إلى أمريكا عائدة من اليمن بعد أن أقتنع زوجها أخيراً بعودتها؛ وقدمتْ طلب ضم له بعد أن ساءتْ الأحوال كثيراً في اليمن.

وقالتْ لي أمل وهي مبتهجة:

- هل تُصدقين؟! هذه أول مرة أتعرف على أختي، لقد تزوجتْ وأنا طفلة، ولم تأتِ لنا في أي إجازة. لقد أخبرتني عن حياتها في اليمن، وعن معاناتها في البداية من الغربة ومن مسؤولياتها الجديدة وخاصة أنها حملتْ وأنجبتْ أول أطفالها قبل أن تعتاد على حياة اليمن، ولكنها فيما بعد استقرتْ وأحبتْ حياتها وزوجها، والآن لديّها أربعة أولاد.
- ولِمَ عادتْ إذن؟
- بسبب الوضع في اليمن الذي أصبح صعباً جداً، ولم يعُد لزوجها راتب؛ فهو يعمل ولا يجد دخل إلا الفتات، لذا أقتنع بالقدوم إلى أمريكا -على الأقل- من أجل مستقبل الأولاد.

*****

اجتمعتُ مع فريقي-الفتيات الثلاث (ميادة ورحمة وإيفا) - وقد أصبحْنَ عاملات معي، وتركْنَ الشقة 5 ووجدن لهُنَّ سكناً قريباً من المخبز مشاركةً بينهُن، تجددتْ حياتهن بمجرد استلامهن لأول راتب، وتحسّن مظهرهن وعادتْ الحيوية لوجوههن، وانضمتْ لنا أمل كمتطوعة، وظلتْ بقية الصديقات (ديما وجين وماري ومليكة) داعمات لنا دوماً كلما احتجنا لهن. أخبرتُ الفريق أن أمورنا تمتْ بنجاح، وأصبح باسل معنا، كما بالتأكيد كانتْ ستوصينا أميمة لو أتاح لها المرض فرصة، ولكن لا يجب أن نتوقف عند هذه النقطة؛ فقد بدأنا وعملنا بكثيرٍ من الخوف والقلق من أجل باسل، ولكن الآن سنعمل من أجل مشروعنا ومصدر رزقنا بأريحية أكبر وبكثيرٍ من الأمل والتفاؤل، ثم ذكرتُهُنَّ أنّ دعم إيجار المخبز ورواتب البنات سوف ينتهي بعد بضعة أشهر، وعلينا تطوير مشروعنا من أجلنا نحن، ومن أجل أن نعتمد على أنفسنا ونقف على أرض صلبة، فهو مشروعنا جميعاً، وهذا لن يتم إلا بتقديم الأفكار والمقترحات من الجميع. فتحتُ جهازي وحثثْتُهُنَّ على إطلاق المجال لعقولهن بالتفكير وطرح الأفكار كيفما كانتْ بهدف تطوير المشروع، وقبل أن أبدأ بتسجيل الأفكار سمعتُ صوت أمي يشاركنا طرح الأفكار:

- لِمَ لا نخصص من أرباح المشروع مبلغاً لسكن الأطفال؟ يمكننا أن نبدأ بمبلغ صغير ثمّ نزيده كلما زادتْ الأرباح، وهكذا نكون فعلاً حققنا رؤية وروح المشروع.

نال المقترح قبول وحماس الجميع، ناقشناه باستفاضة واعتمدناه مباشرة، وكان هذا أهم ما يدعم رؤيتنا (دعم الأطفال في جمعية رعاية الأطفال)، ولكن أجلنا تنفيذه حتى يصبح دخلنا من

مردود العمل وليس من دعم المنظمة، فنكون بذلك مشاركات في المجتمع بشكل فاعل يُحسب لنا. وبدأتُ أسجل بقية الاقتراحات التي تقدمْنَ بها البقية، وتجمّعتْ لديّ قائمة من الأفكار الرائعة، ومن ضمنها توسيع دائرة زبائننا إلى أحياء أخرى وأماكن عمل مثل (الفنادق والمقاهي) وغيرها، وصناعة أنواع أخرى من الكعك، وابتكار طرق جديدة لتقديمه، كما قدمتْ إحداهن مقترح إنشاء حساب على (الانستجرام) يُمكِنّا من الحصول على طلبات من أماكن أبعد عن طريق نشر الكثير من أخبار مخبزنا ومقهانا (مقهى ماري)، واقترحتْ إحداهن أيضاً صنع موقع رسمي. وقعتْ عبارة " صنع موقع" وقعاً جميلاً على مسمعي، رغم أنها لمستْ جرح في أعماقي لم يندمل بعد، بلعتُ حسرتي على الحلم الذي انكسر قبل أن يشتد عوده، وسألتُ:

- من منِكُنَّ تتقن صنع المواقع؟

لم ترد أحد مِنهُنَّ. فقالتْ أمل:

- يمكنُنا الاستعانة بمطور مواقع عن طريق منصات العمل الحر.
- سألتُها كيف؟ فقد كان موضوعاً جديداً لم أسمع عنه من قبل، فردتْ:
- كثير من مطورين المواقع الآن يعملون على منصات العمل الحر، ويتعاملون مع عملاء من مختلف بقاع العالم، ولا يُشترط أن يكون المطوّر هنا في أمريكا، وقد زاد العمل من هذه المنصات مع انتشار المرض وزيادة القيود على التواصل الفعلي بين البشر.

استمرتْ أمل- التي كانت شغوفة بوسائل التواصل الاجتماعي والتكنولوجيا بشكل عام- تحدثنا عن أهمية هذه المنصات وإتاحتها العمل للجميع، وبينما كانتْ تتحدث، كانتْ هناك بقعة في عقلي تركتُها من فترة، وإذا بها تتحرك ويتسلّط عليها الضوء (سمر وعملها). أنهتْ أمل حديثها، وعبّرت عن رغبتها بتولي إدارة كل مواقع المخبز والمقهى على وسائل التواصل الاجتماعي بشكل دائم عندما يتم إنشاؤها، إلى جانب عملها التطوعي في المقهى والذي سينتهي قريباً، وبدتْ فرحة ومتحمسة جداً.

بينما عبّرت إيفا عن رغبتها في عمل محتوى الموقع والاهتمام بتحديثه إلى جانب عملها بالمخبز بالطبع والذي تستلم منه راتبها، وأوكلتُ لميادة ورحمة مهمة توصيل الطلبات بعد أن اقترحتْ ماري استخدام سيارتها في هذه المهمة عندما علمتْ أن رحمة تُجيد القيادة، ويمكن لها الحصول على رخصة.

وعاد السؤال يُطرح من قِبل ماري التي كانتْ سعيدة بتوسُع عملها في المقهى إلى هذه الدرجة:

- من سيعمل الموقع؟

ابتسمتُ وقلتُ لهُنَّ:

- قريباً سوف أُعرّفكن على مطوّرة موقعنا.

وانتهى اجتماعنا، وغادر الجميع، فقمتُ مباشرة واتصلتُ بسمر، وسألتُها:

- هل تعرفين منصات العمل الحر؟
- نعم، لماذا؟
- هل تستطيعين عمل حساب لكِ في إحدى المنصات؟

فكرتْ سمر قليلاً، وفهمتْ مرادي دون أن أشرح - يمكن لها العمل تحت اسمها من خلال هذه المنصة حتى وإن أبقتْ بعض الأعمال مؤقتاً كما هي من الباطن-، ومرّ يوم واحد فقط وتواصلتْ معي مرسلة لي رابط حسابها على منصة العمل الحر، فقلتُ لها:

- أول عمل لكِ سيكون معنا، نرغب بعمل موقع لمشروعنا.
- أعلم، وموافقة على شرط؟
- تفضلين، ما هو الشرط؟
- تساعدينني في عمل الموقع.

تفاجأتُ من شرطها، وشعرتُ بشعور غريب لم أستطع تبيّنه، هل هو استغراب؟ أم خوف؟ أم دهشة؟ سألتُ كأنّي أريد أن أتأكد مما سمعتُه:

- هل تقصدينني أنا؟
- نعم، نعمل معاً، لِمَ لا؟ أنتِ الآن عميل لي، وكلما كان العميل قريباً كلما زاد نجاح الموقع، وأنتِ ستكونين عميلاً ومساعداً.

سهرتُ الليل وأنا حائرة، شعرتُ كأنّ أيادي من الماضي تسحبُني نحو حلمي القديم، أمّا زلتُ أستطيع؟ هل يمكن أن تغفو الخبرة لوقتاً ما ثمّ تعود وتنفض الغبار عن نفسها؟ تتنفس من جديد؟ تشرق إشراقة خجولة؟! لا أدري!

في الاجتماع التالي فتحتُ جهازي وتواصلتُ مع سمر عبر منصة زووم، وعرّفتُها على فريقي العامل والداعم، وعرّفتُهن عليها، وتحدثنا معاً وكأننا في حجرة واحدة، واتفقنا على شكل وبنود الموقع، وحددتْ ايفا القوالب التي تحتاجها لوضع المحتويات عليها، ووجدتُ نفسي أضع الاقتراحات مع سمر وأناقشها بالتفاصيل الفنية، وشعرتُ أيامي الماضية تعود وتنبش لي ذاكرتي. انتهى الاجتماع وغادرت الفتيات، وبقيتُ مع سمر ساعات طويلة نحاول أن ننجز

العمل بأسرع وقت، ووجدتُ نفسي ما زلتُ حاضرة الذهن، ما زلتُ قادرة، وما زالتْ أفكاري مبدعة -على الأقل- هذا ما قالته لي سمر.

*****

كان الاتفاق أن نحتفل بعودة باسل في يوم عيد ميلاده العاشر، والذي يصادف الثالث من يناير، كان الجو بارداً والثلج يغطي كل شيء حولنا؛ لذا حجزنا الصالة في نادي الحي الجديد، وزيّناها بزينة عيد الميلاد، وجهزّنا طاولة كبيرة للأطفال، وضعنا عليها الكثير من الحلويات، وطاولة أخرى أصغر لأمهات الأطفال، وضعنا عليها الكثير من منتجاتنا، ودعونا من أصدقاء باسل في المدرسة الجديدة والقديمة ومن أصدقائه في سكن الأطفال، فكانتْ الحفلة مبهجة، قضى فيها باسل وقتاً ممتعاً، وحصل على ترحيبٍ حار والكثير من الهدايا، وعرّفنا الأمهات على مشروعنا؛ فحصلنا على دعاية جديدة.

تعرّفنا على والدة وشقيقة أمل اللتين دعوناهما للحفلة بطلب منها، وحدثتنا أم أمل عن تغيُّر المجتمع، فأغلب الأسر اليمنية سابقاً كانتْ ترسل الفتيات إلى اليمن بمجرد أن تبلغ الخامسة عشر خوفاً عليهن من العادات والتقاليد الأمريكية، ويتم تزويجهُن هناك، والقليل منهن تعود لزيارة أهلها، بينما الآن تأمل أن تعيش ابنتها أمل معها، وتتزوج هنا وتبني حياتها في أمريكا.

دار حديث شيّق، ووجدتُ نفسي أرغب بمعرفة الكثير عن تلك الأحداث التي كنتُ أسمع عنها حتى وأنا في اليمن، فسألتُها:

- هل وافقتِ أنتِ على تزويج ابنتكِ وإرسالها إلى اليمن في ذلك العمر الصغير؟

- وهل كان يُسأل رأينا؟ لم يكن زوجي يُشركني بأي قرار، لا بتنقلنا من ولاية إلى ولاية ولا بتزويج ابنتنا، لم يكن يُأخذ رأي النساء، ولم يكن يُوضع لنا أي اعتبار. في الحقيقة لقد تزوجتُ أنا وهاجرتُ إلى هنا صغيرة، لم أكمل دراستي ولم أختلط فعلياً بالمجتمع الأمريكي، وجدتُ نفسي أعيش وحيدة إلا من زيارة جارة أو جارتين شريطة أن يكُنَّ يمنيات، هذا كان أهم شرط من شروط زوجي.

فردتْ أمي:

- هذه هي نفسها العادات والتقاليد في اليمن، لم نكن نشترك بقرارات الأسرة، ولكن الآن بدأتْ تلك العادات تتبدل في أوساط الجيل الجديد.

اتفقتْ أم أمل مع كلام أمي:

- فعلاً، وهنا أيضا بدأتْ الأوضاع تتبدل، حتى زوجي الآن أصبح أكثر تقبُّلاً للمجتمع الذي نعيش فيه، وقد سمح لأمل أن تبقى هنا، وسوف تدرس الجامعة في مجال تكنولوجيا المعلومات، وقد

أصبح هذا وضع أغلب الأسر، فالشباب صاروا يتوجهون للجامعات بدلاً من الانخراط في أعمال الآباء، وأغلب الفتيات صارتْ الجامعة بالنسبة لهُنَّ ضرورة، لا مجال لاستبعادها.

شاركتْ أمل:

- أعرف كثير من الفتيات اليمنيات أكملْنَ الجامعات، وأصبحْنَ يعملنَ في وظائف متنوعة، وهناك من وصلتْ إلى مناصب في الحكومة.

شهقتْ شقيقة أمل:

- الحكومة مرة واحدة! رهيب ما كنا نحلم بذلك نهائياً! فعلاً شيء يبعث على الفخر والأمل.

عادتْ أم أمل تُأكد:

بالفعل لقد افترض الجيل المهاجر الأول أنه من المستحيل أن يخوض التنافس، ولكن الأجيال الجديدة أثبتت عكس ذلك.

واصلنا حديثنا المتنوع عن شؤون وشجون اليمن والحرب والغربة، وانتهتْ الحفلة، وبدأ الأطفال بالمغادرة مع هداياهم. غادر الجميع، وغادرتُ مع أمي وباسل وديما وزوجها وأولادها التوأم إلى منزلنا لتناول العشاء معاً، وكان هذا اللقاء الأسري عادة التزمناها أنا وديما بالتناوب كل سبت، فقد كنتُ اعتبر ديما في مقام خالة باسل.

*****

كنتُ حريصة على ألا تجد أمي نفسها مسجونة داخل الشقة مثلما كنتُ أنا، شجعتُها على التعرف على الحي والعائلات اليمنية الساكنة فيه، وكانتْ تأتي كثيراً إلى مقهى ماري لشرب القهوة والجلوس في الركن اليمني الذي أسسناه داخل المقهى، سُعدتُ كثيراً لسعادتها، واعتبرتُه نجاحاً آخراً لي. كما بدأتْ تخصص أياماً تأتي فيها للمخبز، وتساعد في العمل والتوجيهات والاقتراحات، فكانتْ خير داعم لي.

عدتُ ذات يوم من المخبز، ووجدتُها مستغرقة في أفكارها لدرجة أنها لم تتنبه لدخولي، جلستُ بجانبها وأنا مصرّة على معرفة ما يشغل بالها في الفترة الأخيرة.

- لا أخفي عليكِ يا صفية أني تأثرتُ كثيراً عند زيارة باسل في سكن الأطفال، كما تعلمين أن رعاية الأطفال الأيتام في بلادنا لا تتم بالشكل السليم، أمّا الأطفال الذين يعانون من حياة أسرية سيئة فنادراً ما يتم الاعتناء بهم أو حتى التنبه لهم.

- فعلاً يا أمي، كما أن التبني أمرٌ غير معتاد في بلادنا، هل تعلمين أن التبني هنا يتم دون إخفاء الحقيقة عن الطفل؟ بل يُعطى له الحق عندما يصل إلى عمر معين بالسؤال عن أهله ومعرفة من هم إذا كانوا معروفين، وأيضا - كما لاحظتِ- ليس كل الأطفال في السكن أيتام، كثيرٌ منهم يتم أخذهم من أهلهم لسوء معاملتهم لهم.

- نعم، أعتقد هكذا أفضل للأطفال، إذا تعذر على الأسرة رعاية أطفالها، فيمكن لأسرة أخرى القيام بذلك.

- وهل تعلمين يا أمي أن لديّهم أيضا مدارس خاصة للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة؟ حتى الحالات الصعبة يأخذونهم للمدرسة، ويعتنون بهم مثل بقية الأطفال.

وجدتُ أمي قد شردتْ مرة أخرى، استغربتُ وعدتُ أحدثُها:

- سوف أعرّفكِ يوماً ما على هذا النوع من المدارس، سنذهب في إحدى المرات مع ديما عندما تذهب لجلب أولادها.

تنبهتْ أمي لحديثي، وردتْ قائلة:

- نعم، أعتقد أني أرغب برؤية هذه المدارس.

نظرتْ إليّ وأكملتْ:

- الحقيقة يا صفية هناك ما يشغل بالي فعلاً، لقد قضيتُ وقتاً طويلاً منذ أن كبرتِ أنتِ وإخوتكِ وأنا لا أعمل شيئاً في هذه الحياة، لكني كنتُ أقضي وقتي مع أبيكِ وصديقاتي، فلا أشعر بالملل ولم يكن يخطر ببالي العمل ولم تكن حياتي ناقصة، كانتْ هذه حياتي وحياة أغلب النساء من حولي. لم أتوقع أن تهاجري أنتِ، ولم أتوقع مطلقاً أن أهاجر أنا، ولكن هذا ما كان مكتوب لنا، ولا أريد أن تمرّ أيامي هنا بمرارة الغربة وذكريات الوطن وحياتي الماضية، طالما وجدتُ نفسي هنا فأنا أرغب أن أشغل وقتي حتى لا أظل رهينة ماضٍ لن يعود، وذكريات شريكها الأكبر أبوكِ- رحمه الله.

صمتتْ وظلال الحزن يمرّ بأثره على وجهها، وتبرق الدمعة في عينيها دون أن تغادرها، ونظرتْ إليّ كأنها تريد مني أن أتوقع ما تريد عمله، لم أستطع التوصل لشيء، فعادتْ تكمل حديثها:

- كما تعلمين أنّى كنتُ أجيد اللغة الإنجليزية، ومع حديثي مع فريقكِ ومع ماري في المقهى، لاحظتُ أني بقليلٍ من الممارسة يمكنني أن أستعيد لغتي الإنجليزية بشكل جيد.

- هل تعلمين يا أمي أنه توجد هنا مدارس لتعلُّم اللغة الإنجليزية للقادمين الجدد؟ والمترددون على هذه المدارس بعمري وعمركِ وليسوا أطفالاً، وأعتقد أنكِ لو خضعتِ لاختبار تقييم المستوى، سيُمكنكِ أن تبدئي من مستوى متقدم.
- حقاً، إذن سيكون من الجيد أن أعود للمدرسة رغم أن الموضوع يبدو مضحكاً لي أن أعود في هذا العمر.
- كل طلبة المدرسة من المهاجرين والمهاجرات كبار في العمر، لن تشعري بالغرابة بينهم، كما أنه يمكنك التعرُّف على صديقات، والتعرُّف على القوانين والعادات والتقاليد التي تحكم المجتمع الأمريكي والتي يتم تدريسها ضمن أنشطة المدرسة.
- جميل، ولكن لا أخفي عليكِ أن هذا ليس ما يشغل بالي هذه الأيام، فأنا أفكر فيما إذا يمكن لي أن أحسّن من لغتي ثمّ أتطوع للعمل في سكن الأطفال، ما رأيكِ؟

سكتُ، وأنا مندهشة للفكرة الجميلة التي توصلتْ لها؛ فقلتُ:

- ولِمَ لا؟ إنها فكرة جيدة، دعينا نبحث على النت ما هي الشروط، ونحاول تلبيتها.

قضينا وقتاً نبحث ونستكشف الشروط، فوجدنا أن هناك شروطاً يمكن تلبيتها مثل عمل بعض الفحوصات والحصول على ضمان أمني من مركز الشرطة في الحي، وتفضيل من لديّهم أي دبلومة في رعاية الأطفال أو التخصصات النفسية، فخطرتْ لي فكرة، فقلتُ لأمي:

- ما رأيكِ لو تلتحقين بدورة لمدة ستة أشهر في رعاية الأطفال؟ إنها مخصصة لمساعدي المشرفين الأساسين في رعاية الأطفال.
- ماذا؟ لا أعتقد أني أستطيع عمل هذا يا صفية، أن أعود لدراسة اللغة أمر سهل، ولكن أن أعود للدراسة وباللغة الإنجليزية لا أعتقد أن هذا ممكن؟
- لِمَ لا؟ إنها دورة أونلاين، ستلتحقين بها وأنتِ في المنزل، وسوف أساعدكِ بما يصعُب عليكِ.
- لا، صعب يا صفية هل تعلمين كم أبلغ من العمر؟
- لقد عادت جين- التي تعمل في المكتبة وقد تعرّفتِ عليها - للدراسة عندما كانتْ في عمركِ تقريباً، وحصلتْ على دبلومة مكتبات، ويمكننا خوض التجربة، فإذا نالتْ ارتياحكِ تستطيعين المواصلة، ما لم توقفي، لا شيء يمنعنا من التجربة.

وهكذا ذهبنا للنوم وكلٌ منا تُعيد في خيالها ما جرى في يومنا، وتحلم ولِمَ لا؟

*****

مع بدء عمل الموقع والإنستغرام والفيسبوك، ومع روعة عمل الفتيات للدعاية لمخبزنا ومقهانا؛ بدأتْ الطلبات تأتي من عدة أحياء، وبدأنا نخصص جزء من مساحة المخبز لعملية تغليف

الكعك بطرق متنوعة وجميلة، ونضعه على التُوُّر (السلال) اليمنية، ونغطيه بالأوراق الشفافة المزهّرة، ونزيّن العقدة بشرائط الهدايا، فيصبح معروضاً كهدايا بشكل جميل وأنيق. انتهي الدعم من المنظمة، وبدأ دخلنا يغطي مستلزمات العمل ومنها رواتب الفتيات والإيجار وغيرها، كما بدأ المشروع بالحصول على هامش أرباح، ينمو ببطء ولكنه ينمو. نفذنا فكرة أمي؛ واستقطعنا جزء بسيط من أرباحنا كتبرع لسكن الأطفال، واكتشفنا أننا بهذا التبرع يمكننا أن نحصل على تخفيض ضريبي؛ تفاجأتُ من تقدير الحكومة وتشجيعها للتبرع وعمل الخير.

أخذتْ أمي دوراً رئيسياً في المخبز، وصارتْ مسؤولة عن حركة العمل ومتابعة الفتيات، وظلتْ تواصل دراسة الدبلومة على أمل أن تُخصص يوماً للعمل أو التطوع مع الأطفال. بدأتُ أصنع الكعك بطرق متنوعة مع مقترحات أمي، وأحضّره أحياناً مع السمن البلدي، وأزيّنه بالحبة السوداء تارة وبالسمسم تارة، وبدأتُ أعمل أنواع أخرى من أخباز اليمن، وقدّمنا الكعك في المقهى مع المشروبات الساخنة ومع العسل، وراجتْ سمعة مقهى ماري، وازدحم الركن اليمني، وبدأنا بإرسال منتجاتنا بعد وضعها بالتُوُّر اليمنية الجميلة الملونة وتغليفها إلى عدة مقاهي ومحلات، وحصلنا على طلبات من بعض الفنادق في منطقتنا. نشطتْ الفتيات في عملهن وفي إدارة مواقعنا، ووضعْنَ على الموقع مقترحات لتقديم الكعك في مناسبات عديدة كالأعياد والفطور الصباحي أو مع شاي المساء من خلال قصص قصيرة وصور، وعمِلْنَ أيضاً دعايات بعدة لغات ولعدة شُعوب، ووضعْنَ للكعك اليمني مكان في مناسباتهم المتنوعة.

طلبتْ ديما عقد اجتماع ضروري، اجتمعنا وأخبرتنا أن منظمة دعم النساء المهاجرات سوف تقوم بتقييم كل المشاريع التي دعمتها للعام 2022؛ لترشيح أفضل ثلاثة مشاريع، وسيحصل المشروع الأول على استمرار تقديم دعم لسنة جديدة (الإيجار ورواتب العاملات)، وسيحصل المشروعان الأخران على مبلغ محدد، وأخبرتنا أن هذه فرصة لنا؛ لنحصل على الأقل على الدعاية في حفل المنظمة الذي يحضره أناس من عدة جهات وإن لم نحصل على أيٍ من المراكز الثلاثة. وهكذا أصبح الاشتراك في هذه المسابقة هدفاً جديداً لنا.

(5)

سمعتُ باسل يناديني:

- صافي، هيا صافي، لقد أتتْ خالتي ديما، هيا انهضي، لِمَ ما زلتِ نائمة حتى الآن؟

فتحتُ عينيّ أحاول أن أنفض عنّي تعب الذكريات، عرفتُ أنّ الساعة شارفتْ على العاشرة، اليوم سبت ولديّنا أعمال كثيرة علينا إنجازها من أجل حفل تقييم مشاريع دعم النساء المهاجرات.

- صافي، هل كتبتِ لنورما قصتكِ؟ عاد باسل يسأل باهتمام.

قلتُ وأنا أنهض من السرير على نداء ديما:

- لا، لن أكتب، اذهب وأتصل بها حتى ترسل مجموعة الأسئلة سأرد عليها، وهذا فقط ما يمكن نشره.

أخذ باسل هاتفي، وركض مسروراً بالمشاركة في هذه الاستعدادات، وذهب لإنجاز المهمة. وكانتْ أمي تستمع لحديثنا، فسألتني:

- لما لا تكتبين القصة؟ إنها قصة نجاح جميلة، وقد كانتْ نورما متحمسة.
- سوف أرد على أسئلتها وهذا يكفي يا أمي. قصتي طويلة ولا داعي أن أشغل الناس بها، عن مشروعي فقط سوف أتحدث وليس عن قصتي الشخصية ولا عن قصة باسل، لا داعي أن أجعل من باسل مادة لحديث الناس.

وافقتني أمي بهز رأسها، ونهضتُ إلى حيث كانتْ ديما تنتظرنا في المطبخ، وقد بدأتْ بتجهيز طعام الفطور. ذهبتُ إلى حجرة باسل لأخذ هاتفي، وكان قد زيّن حجرته بكثيرٍ من صور الروبوتات والسيارات ذات القيادة الذاتية، نظرتُ إليها، فشرح لي الموضوع بحماس قائلاً:

- ندرس عن الذكاء الاصطناعي في المدرسة هذه الأيام، وهو موضوعي المفضّل كما تعلمين، وقد قررتُ أن أهتم بالموضوع، وأصنع لكِ روبوت يساعدكِ في المخبز وفي توصيل الكعك، كما سأخترع سيارة ذاتية القيادة لزيد وزياد حتى يتمكنوا من التنقل بسهولة.
- جميل، رائع يا باسل.

ووقع نظري على صورة أميمة فوق الرّف أمام مكتبه، نظر باسل إلى حيث أنظر وقال:

- لقد قالتْ لي أمي أني سأكون أذكى شاب يمني، سوري، أمريكي، هل تعتقدين أنها ستكون فخورة بي؟

- إنها فخورة بك من الآن؛ فأنت أذكى ولد يمني سوري أمريكي.

قبّلتُه وركض وهو يشرح لخالته ديما فكرة السيارة ذاتية القيادة. تحدثنا على طاولة الفطور عن التطوع وأهميته للمجتمع، وعن اشتراط المدارس على طلابها إكمال عدد من ساعات التطوع في خدمة المجتمع قبل أن يُسمح لهم بالتخرج منها، فينمو في ذواتهم الاهتمام بالمجتمع والانتماء للوطن وحب العطاء دون مقابل. شاركنا باسل الحديث بأنّه سوف يتطوع قريباً مع مخترعين الروبوت، فضحكنا وأيدنا اقتراحه، وعُدْنا لنتحدث عن المسابقة.

وبدأنا نجهز قائمة بما علينا عمله خلال الثلاثة الأيام المتبقية حتى نلحق بتقديم عرض جديد لمشروعنا في المسابقة. وصلني ايميل بالأسئلة المطلوبة، وكانتْ بالفعل مركّزة على مشروعنا، حوّلتُ الرسالة لإيفا مسؤولة الموقع، فهي أفضل من يرُد عليها، بينما انشغلتُ أنا في إعداد المحاضرة التي سألقيها في الحفل كما طُلب من جميع أصحاب مشاريع المنظمة لعام 2022.

وقبل موعد الحفل بيوم؛ سمعتُ طرقات على الباب ثمّ صوت الجرس، خفق قلبي لا أدري لماذا؟ ركض باسل لفتح الباب، فسمعتُ صوت يمني يرحب به بالعربي ثمّ بالإنجليزي؛ وكانتْ المفاجأة، إنّها شيماء صديقة طريق رحلتي الأولى، ورفيقة السفر.

ظهرتْ أمامي، وقد بدتْ أكثر نضجاً ممّا كانتْ قبل سنوات، زادتْ جمالاً ورونقاً، وكانتْ تلبس ملابس أنيقة وشعرها يغطي كتفيها، ابتسمتْ لي، فالقيتُ بنفسي في حضنها، بكينا لا نعرف أمِن فرحة اللقاء؟ أم من ذكريات رحلة قصيرة جمعتْ بيننا ذات يوم، وحمَلتنا في طريقٍ واحد ثمّ باعدتْ بيننا وقاربتْ بيننا اليوم؟ شيماء رفيقة الطريق كما اعتدتُ على تسميتها، طريق قصير ولكنه جمع بيننا لسنوات فكنّا كصديقات عمر، مثلُها مثل سمر.

جاءتْ لحضور الحفل مع زوجها وابنها، كانتْ مفاجأة لي ولأمي، وعرفتُ أنّهم قد وصلوا صباح اليوم، وحجزوا بأحد الفنادق القريبة وسوف يبقون هنا لمدة أسبوع. ضحكتْ شيماء وهي تحتضني وتقول إنها أخذتْ العنوان لتقديم هدية باسل بنفسها. وفعلاً قدمتْ لباسل هدية رائعة، وكانتْ عبارة عن كتاب كبير عن الروبوتات مخصص لمن هم بعمره، ونموذج لرجل آلي يستطيع القيام بعدة حركات، ففرح بها باسل إلى أقصى درجة.

خرجنا كلنا أنا وأمي وديما وأسرتها مع شيماء وزوجها وابنها الصغير، عرّفناهم على مدينتنا، وعلى فريقنا ومخبزنا ومقهانا بالطبع. كان لحضور شيماء أثر كبير على نفسيتي وشعوري بأن لديّ صديقات حقيقيات يمكن لهُنّ القدوم من مدن بعيدة للمشاركة والدعم.

عُدْنا من جولتنا إلى المنزل، غادرْنا جميل لزيارة أصدقاء له، وذهب البقية لشؤونهم، فجلستُ مع شيماء نتناول قهوتنا ونستعيد ذكرياتنا ونتحدث بالتفصيل عن أخبارنا. بدتْ شيماء سعيدة؛ وضعتْ ابنها على عربته عندما نام، وجلستْ تحدثني، عرفتُ أن شقيقها ترك اليمن، وسافر إلى تركيا للمشاركة في مشروع مع بعض من أصحابه من أبناء التجار اليمنيين، والذين نقلوا أعمالهم من اليمن بسبب الحرب والاضطراب والفوضى، واستقر هناك مع أسرته، وأكملتْ تقُص أخبارها التي لم تقصّها عليّ في الهاتف:

- حتى أختي الصغيرة بثينة، ذهبتْ إلى ألمانيا للدراسة بمفردها، ما كنتُ أتوقع أن يقبل أبي بذلك نهائياً، ولكن كما يبدو أن ظروف الحرب جعلتهم يعجزون عن رفض أي فرصة للخلاص من ذلك الوضع.
- وهل استمرتْ بثينة في ألمانيا؟

ضحكتْ شيماء، وأكملتْ:

- نعم أنهتْ دراستها، وهي الآن تعمل هناك ولا تنوي العودة، وأكثر من ذلك لقد قدمتْ دعوة لأبي وأمي، ونجحتْ بذلك فذهبا إليها، وقررا البقاء هناك لبعضٍ من الوقت، خاصة أنهما بقيا بمفردهما في اليمن.
- فعلاً، لقد أجبرتْ الحرب الناس على الموافقة على ما لم يكن يخطر ببالهم الموافقة عليه سابقاً، لقد سمعتُ أن كثيراً من الشباب يجوبون العالم إلى دول لم نكن نسمع عنها بهدف إيجاد مكان عمل وحياة طيبة، ومثلهم الفتيات وخاصة اللاتي كُنّ يدرسْنَ بالخارج قبل الحرب، أصبح من الحكمة أن يواصلْنَ الحياة في هذه الدول، ويبحثْنَ عن عمل كما عملتْ بثينة، صارتْ الهجرة خياراً مفروضاً، والغربة كلمة أخذتْ حيّزاً كبيراً في تفكيرهم؛ وهو ما لم يكن وارداً في قاموسنا.
- حتى الزواج خرج عن المألوف، هل تعلمين أن صديقتي التي كانت تدرس في ماليزيا، تزوجتْ من شاب مسلم ماليزي؟ تقبّلتْ الأسرة الخبر على مضض، وتمَّ عمل عُرس لها في مصر، وحضر أهلها والكثير من الأسر اليمنية المقيمة هناك، واعتاد الناس ما فرضه الواقع علينا.
- لعلّه خير.

*****

وجاء موعد الحفل في مايو 2023، بدا الجو جميلاً - في ذلك اليوم- والشمس ساطعة، وأُقيم الحفل في أحد المتنزهات الكبيرة، وأخذ كل مشروع طاولتين تظللهما مظلة عريضة لعرض منتجاته.

أحد المشاريع كان لشقيقتين من أصل هندي، هاجرتا من الهند منذ عام مع أبويهما، لديّهما أحلام كبيرة، لكنهما قررتا تأسيس عمل يدعمهِن في حياتهِن، وقد خططتا إذا نجح العمل تسليمه لوالديهما لإدارته- فقد كانا تواقين لذلك-، ووقتها يمكن لهما ملاحقة أحلامهِن بالدراسة والعمل. ومشروعهِن عبارة عن مطعم متنقل (عربة كبيرة مُجهزة كمطبخ) للمأكولات الهندية النباتية، فأمتُلئ ركنهما بالمأكولات الهندية اللذيذة. والمشروع الآخر لفتاة من أصل مصري مهاجرة بمفردها منذ عامين، تدرس فنون جميلة، وكان مشروعها عمل الاكسسوارات ذات الطابع الفرعوني، فأمتُلئ ركنها بالإكسسوارات الجميلة. والمشروع الثالث كان لشابة من أصل كوري مع زوجها، قدما منذ عامين من قرية صغيرة في كوريا، فقررا عمل مشروع يستطيعان من خلاله أن يعكسا الحياة التي يعرفانها، والمشروع عبارة عن مزرعة صغيرة، استطاعا الحصول عليها بدعم المنظمة، فخصصاها لإنتاج الكثير من المحاصيل وتربية الدواجن، فشمل ركنهما على الكثير من منتجات المزرعة وعدة صور لها. أمّا المشروع الرابع فكان لفتاتين صديقتين هاجرتا من غانا بمفردهِن منذ عام، كلاهما طالبتان في قسم التغذية، إحداهما كانت تعاني من حساسية من الجلوتين؛ فكانتْ فكرة مشروعهن صناعة الأخباز والمأكولات الخالية من الجلوتين؛ فاحتوى ركنهن على كثيرٍ من الأخباز والمأكولات الخالية منه. وكان مشروعنا "مخبز ومقهى أميمة" يشمل صنع عدة أنواع من الكعك المالح والكعك بالسكر، وشمل ركننا كذلك على القهوة اليمنية والزبيب واللوز.

بدأ برنامج الحفل بنبذة تعريفية عن المنظمة، وتقرير عن الصعوبات التي تواجهها النساء المهاجرات خاصة القادمات حديثاً إلى أمريكا، ثم قدمتْ كل صاحبة مشروع عرض لمشروعها، وكيف بدأ ثمّ كيف نجح، وقدمتُ عرض لمشروعنا الذي رغم أنه في صميمه وهويته يمني، إلا أنه تمّ بدعم فريق متنوع الخلفيات والثقافات، وحدّنا حب العمل وحب النجاح. عرّفتُ بنفسي وعرّفتُ بفريقي العامل، وشكرتُ فريقي الداعم (ديما وماري وجين)، وشكرتُ أيضاً صديقتي سمر صانعة موقعنا.

تمتْ العروض الشيقة التي روتْ حكايات جميلة وقصص تحتوي على الكثير من الأمل، استمر الحفل والناس تتنقل بين الطاولات، وتتذوق من المأكولات المتنوعة، وكان هناك أغاني خفيفة يبثُها مجموعة شباب شاركوا في الحفل. وبينما كنتُ أتجول وسط الحفل مع باسل، جاءتْ فتاة في مُقتبل العمر تطلب مني أن أرد على أسئلتها القليلة من أجل مجلة المنظمة، فوافقتُ، ففتحتْ التسجيل على هاتفها وسألتني:

- هل تتوقعين أن يحظى مشروعكِ بالجائزة الأولى؟

فقلتُ لها:

- المشاريع كلها رائعة وجميلة، وكلنا أسرة واحدة تحاول أن تثبّت أقدامها في الوطن الجديد. كل مشروع فيه حنين لوطن تركناه، ولمسة شغف نعيشها في وطن وصلناه، لا يهمُني أن أحصل على الجائزة الأولى؛ الأهم أن نحتفظ بشغفنا وحبنا للنجاح.

ابتهجتْ الفتاة لكلماتي، وشعرت أنّها كلمات انطلقتْ من قلبي وعبرتْ بصدق عن مشاعري، فعادتْ الفتاة وسألتْ:

- هل كان هذا حلمكِ منذ الطفولة؟

ابتسمتُ وسألتُها:

- هل تقصدين أن أكون صانعة الكعك اليمني؟
- نعم.
- لم يخطر ببالي في طفولتي أو شبابي، أحلامي كانتْ مختلفة كثيراً، كنتُ أحلم أن أكون صانعة مواقع.
- واو!! رائع، ولِمَ لا تعودين لهذا الحلم الجميل؟
- أعود؟؟ أني سعيدة اليوم بهذا اللقب "صانعة الكعك اليمني" وممتنة لما حققتُه ووصلتُ إليه.
- أشكركِ كثيراً.

تركتُها تستمع للتسجيل على هاتفها سعيدة بإنجازها الصغير، وامسكتُ يد باسل وسرِنْا إلى حيثُ ركننا، وكان مزدحماً بالزبائن والأصدقاء والأهم بالأهل ننتظر النتيجة كيفما كانتْ، لقد حققنْا هدفنا وهذا هو الأهم، أعلم ما زال الحلم متوهجاً في أعماقي، وربما مساعدتي لسمر حركتْ الحنين إليه، لا أدري إذا ما زال في استطاعتي أن أخوض تحدياته الجديدة! أرسمه بشكل مختلف، قوي، واثق ومتألق! لقد قيّدتني الظروف والضروريات؛ وقد تجاوزتُها وسكن القلق والخوف واطمأنَّ القلب، فهل ما زال في العمر متسع لأحلام ملونة؟؟؟